جريمة شرف

ليس من عادته ان يتضايق اذا تجاوزه أحد بسيارته ، لكنه اليوم كان يثور لذلك ، ويفتل شاربيه ، ويسابق السيارات كلها .. بل انه سمح لنفسه بتجاوزات اخرى ، فقد أدار زر المذياع وهو أمر لم يسبق لـــه ان تجرأ عليه منذ عمل سائقاً لدى نظوم بك الحسباوي .. لكنه بينما كان يبتاع ، لسيدته (الجاتوه) ، الخاص بالريجيم ، اللذي تأكله بدلاً من الخبز ، سمع ان هناك تحركات اسرائيلية عدوانية على قرى الجنوب ، وعلى قريته عيترون بالذات ..

وصل الى القصر ، واعطى (الجاتوه) للخادمة التي قالت له بسرعة :

« الست تريدك . اصعد الى غرفة نومها » ..

صار يعرف الطريق جيداً ، « فالست » دوماً في غرفة نومها ، بالضبط في فراشها ...

بسمل وحوقل ولعن الشيطان وخزاه ، وتسلق الدرج الرخامي الطويل ...

عـــلى طرفي الدرج في قمته تمثال رخامي لامرأة عاريـــة تماماً (لماذا يتركونها عارية هكذا ؟ انا مستعد لشراء ثوب لها من راتبي ، وفي الليل سأتسلل وأدثرها به فهي تشبه زوجتي تغريد أم علي ... كأنهم نصبوا هذا التمثال هنا خصيصاً لاغاظتي ... كل ما في هذا القصر كأنه وجد أصلاً لاغاظتي) ...

ها هو امام الباب المبطن بالمخمل الارجواني ...

يدق الباب دون ان يدري ان قرعاته لن تسمع ، فالغرفة عازلة للصوت .

(هذه « الحرمة » دوماً مطروحة على سريرها مثل بدوية اجهضت للتو) .. يدخل ...

ها هي الست « فيردالونا » في الفراش المبطن بالمخمل ، المغطى «بالساتان» الوردي ... الجدران ايضاً وردية ... والسقف ينسدل منه الساتان بصورة خيمة ... خيمة من الساتان ... ها ... (ماذا يعرفون عن الخيام؟ ... كنا ننصب الخيمة وسط الحقل ، وننتشر فيـــه انا واولادي السبعة نقطف التبغ ... مرة عدت الى الخيمة لاحضر لهم بعض الماء ... ابني عـــلي كان قـــد تمدد ليستريح قليلاً ، وبين الفراش الممدود عـــلى الارض وقماشه الخيمة كانت « أم اربع واربعين » ضخمة ... أمسكت بها بين أصابعي وفركتها ... هاهي « أم اربع واربعـــين سنة » مدام « فيردالونا » ممددة امامي في الفراش ، وشاربي يرتجف امامها ، ولا اجروءُ على ان أمد يدي فأفركها بعضاً من اللحم المعجون بالدم والشعر الاصطناعي والرموش المستعارة وانتهي من أوامرها) ...

الستائر مسدلة كأن الوقت ما زال ليلاً ... (اشتهي ان اقول لها مرة صباح الخير ولا اجروءُ . وقتها دوماً ليل) .

لو دخلت الى الغرفة ذبابة لتحركت المدام « فيردالونا » في فراشها أكثر مما فعلت حين دخل ابو علي ... ظلت كما هي ... ممدة في ثوب نوم بنفسجي شفاف ، انكشف بعضه عن ساقين بيضاوين زرقاوين كما الجثث بعد ساعة من الوفاة ... مترهلتين رغم اصابع (الماسور) توتو الذي يحضر كل يوم ويغرس اصابعه في لحمها العتيق كعجينة بلا خميرة ، وعبثاً يصلح (المساج) والتدليك ما أفسد الدهر ... ويتظاهر خلف نظارتيه السوداوين بأنه اعمى ... يختبيء خلفهما كما يختبيء خلف اسم الدلع (توتو) كي لا يعرفوا انه هو توفيق ابن المشلول مصطفى جاسر ، الذي أصيب برصاصة منذ ٢٥ سنة استقرت في عموده الفقري بينما كان ينادي : « يا مستعمر اطلع بره » ... ومن يومها خرج الحكم الاجنبي وبدأ حكم الجوع في بيتهم بعد ان فقد رب الاسرة قدرته على العمل ونسيه الجميع في غمرة اعياد الاستقلال .

كل ما فعلته المدام « فيردالونا » حين دمدم ابو علي (احم احم) للمرة

الخامسة ، انها فتحت جفنيها كمن عاد من اغماءة طويلة وتأملته بعينين دامعتين .. وعادت تنثني فوق الجسد الذي احتضنته وتنوح بعربية مكسرة : يا خبيبي يا ببوش ... وتطلعت الى ابو علي بعينين ساح كحلهما وسال في أوديــة التجاعيد ، وبصوت ملهوف ناحت ثكلي : انه مريض (مالاد) ... حرام ... والليلة الحفلة ... بعد قليل يجيء الحلاق والمانيكورست ... وهو مريض ... يا خبيبي يا ببوش ...

واضطر ابو علي الى ان يقول لها : سلامة قلبه ... لكنه أحس بشاربيه ينكسان الى الاسفل مثل الرايات المهزومة (**شواربك يا بو علي لو وقف عليها الصقر لما اهتزت ... كان ذلك ايام زمان ... آه**) ... سلامته يا مدام ، سلامة قلبه ياست !

وهنا لاحظ السيد « ببوش » دخول ابو علي ، وانتفض من بين يدي « فيردالونا » وبدأ يعوي بكل شراسة ... ذلك الكلب اللئيم الغنوج .. لماذا كره ابو علي من أول نظرة ... ابو علي يعرف انه كرهه من اول نظرة (**في ضيعتي عيترون كل كلاب القرية تحبني ... وتميزني ... انها هناك خشنة ، صوتها كصوت الذئاب ، وفيها رجولة ... فحلة وشجاعة وتهز بذنبها بمودة وبلا تزلف ... كل شيء في هذه الفيللا مختلف ... حتى الكلاب ... لا البشر بشر ولا الكلاب كلاب**) منذ النظرة الاولى الى ببوش احس بو علي ان وجود احدهما يتهدد وجود الآخر ... وهو لن ينسى ذلك اليوم أبداً ... (**هبط نظوم بك الحسباوي من سيارته الكاديلاك اميريال التي اقودها امام المدخل الرئيسي للقصر ... واشار الى الباب الخلفي في الحديقة وقال لي : اذهب يا بو علي الى المطبخ وكل ، وبعد الغداء اقدمك لزوجتي ، مدام فيردالونا ... كنت جائعاً ... لم اتناول لقمة منذ وصلت من عيترون ... أي منذ ايام ثلاثة صعبة ... كنت متخماً بالقهر والقهر والقهر ... أجل ! القهر هو الكلمة ..**

دخلت من باب المطبخ ودون ان يلتفت الي الطباخ الفرنسي أشار

الى صحن الطعام على المنضدة ... كان كل شيء منظماً ، ولم يقل لي احد تفضل أو « عوافي » أو « صحتين » ولكنني كنت جائعاً مثل ثعلب الكروم ...

وهجمت على صحني ، وفجأة سمعت صوت زمجرة ... ورأيته ... رأيت ببوش ...

كان يرتدي قميصاً من الحرير مرقطاً بالابيض والاحمر له « كشاكش ودانتيل » مثل الفستان الذي شاهدت ابنتي « خضرا » ترتديه وهجم عليها يومئذ شقيقها علي ومزقه لانه فاضح الالوان ومثل ثياب بنات بيروت ... زمجر ببوش حينما شاهدني أدفع الى حلقي بأول لقمة ... كان بقية الخدم من ايطاليين وفرنسيين يأكلون ... ولم يضايق الكلب ذلك ... لماذا ضايقته لقمتي ؟ ... ثم انه كان امامه صحن هائل مليء باللحم ، فلماذا تضايقه لقيماتي المغمسة بالعرق الذي بدأ يهطل من جبيني داخل الصحن بينما بدأ بقية الخدم بالضحك ؟ ...

التقت نظراتنا ... كانت هنالك شريطة وردية معقودة على ذنبه ... وكان في عينيه ما يشبه الخوف مني ... والحقد ... كثير من الحقد ... كثير من الحقد كذلك الذي أطل من وجوه الجنود الاسرائيليين وهم يزرعون المتفجرات في جذور بيتي ... الحقد والخوف ... كان ناعماً ... تفوح من شعره اللامع المصفف رائحة العطر ... وكانت يداي خشنتين وجلدهما قاسياً كجلد سلحفاة عمرها الف عام ، وأظافري طويلة ومحدبة لا كاظافره التي لاحظت بذهول انها مدهونة بطلاء احمر ... وكان بيننا عداء سري ...

وبدأ يعوي وكف عن الأكل ...

وتقلصت اصابعي واظافري ، وصارت لقمتي معجونة بالملح والكلس .

وظل يعوي ، وغصصت باللقمة ... ثم دخلت امرأة اربعينية ، فنهض الخدم جميعاً وكفوا عن الاكل ومثلهم فعلت ، وركض اليها الكلب اللئيم

وكأنه يشكوني اليها وهي تحتضنه وتحدثه بلغة اجنبية لم افهمها ... ثم لحق بها البيك وطلب منها العودة الى الطعام لان ضيوفه مهمون والصفقة يجب ان تتم ، ومن الضروري ارضاؤهم ... وخرجت « الست » غاضبة بعد ان رمقتني بنظرات سامة احسستها مثل كأس من الديمول تنصب في صحني ... مثل الديمول الذي شربته (حكيمة) ابنة جاري لان والدها رفض ان يزوجها شاباً من الفدائيين ما دام عاجزاً عن دفع مهرها بقرة وثلاثة ثيران ...

وفتلت شاربي ، وصرت اردد بصمت : انا ابو علي الضرغام ... انا ابو علي الضرغام ... وهذا كلب ابن كلب ابن كلبة اجنبية ...

وظل طعم الديمول في الطعام ... ونهضت وأنا أحس بأن فتل شاربي لم يعد يجدي ... وخرجت الى الحديقة ودخنت سيجارة لف ، لففت داخلها بقايا آخر محصول من دخان أرضي ، وبدأت ابكي كالنساء . عيب) ..

ازداد عواء ببوش حينما شاهد ابو علي الضرغام يقف بحذائه القذر فوق السجادة (الموكيت) البيضاء ذات الريش الطويل في غرفة النوم ذات الجدران المخملية الارجوانية كعلب المجوهرات ...

وقالت السيدة فيردالونا : الليلة حفلة انتخاب ملك جمال الكلاب ... وكلبي طبعاً أجمل كلب . ولكنه كما ترى مريض ... مريض ... خذه الى دكتوره مسيو فراشيخ ... وحين أنتهي من (المساج) سألحق بكما ...

حمل الكلب اللئيم كما كان يحمل الكلاب في ضيعته ... لكن مدام فيردالونا أنّبته بنظرة شرسة ... ففهم ... واحتضنه كما يحتضن الاطفال المرضى ، فخرج به من الغرفة وهبط الدرج وقد سقط شارباه الى الاسفل (بين ذراعي احتضنت ابنتي هكذا . كنا نقطف التبغ ... وكان الليل منعشاً والسماء تضيء كأول فجر بعد الطوفان ... حدث الامر بسرعة ... اضواء كشافة ورصاص ، زخات رصاص ثم انطفأ كل شيء الا صراخ ابنتي

« خضراء » ... ركضت اليها ، كانت تنزف مثل طائر نادر صرعــه الصيادون للتو ... حملتها وركضت بها الى القرية ... خاف سائق التاكسي الوحيد في القرية وقال ان الاسرائيليين اعتادوا مع كل غارة ان يطيروا فوق الطرقات ايضاً لقذف السيارات بقنابل محرقة ... فذكرته بالنخوة وبأيام الشباب ، ايام كنا نذهب الى بيروت لسهر الليالي ... ذكرته بانه كان رفيقي يوم التقيت زوجتي الاولى الساحرة أم علي وكان اسمها في الملهى تغريد ... وكيف انه كان شاهد زواجنا ... وكيف وقف معي وشجعني على اختطافها من البيك الذي كان يستغلها والذي نجهل اسمه ... وقبل دعدس حدرج السائق وحملني وابنتي الى مستشفى صيدا ...

ابني علي لم يحزن من أجلها ... قال انها تستحق الرصاصات الثلاث في بطنها ، فهي قد تكون حاملاً من جول صالح ، الفلسطيني الذي لم استطع ان أمنعه من الالتجاء الى بيتي — المنسوف — كلما شاء — قبل أن ينسف البيت — ... وقال ابني علي ابن تغريد انني احابي « الفدائية » لان زوجتي الثانية إمتثال فلسطينية من عكا وتربطها بجول قرابة بعيدة ... وعبثاً حاولت اقناعه بأن امتثال امرأة طيبة وبنت حلال والا لما قبلت بأن تكنى بأم علي نسبة اليه ... وبان أمه الست تغريد ، التي حميتها من البيك ، وتزوجت منها ، ونقلتها من حي الزيتونة (والكاباريهات) بعد أول ليلة سهرت فيها هناك مع دعدس حدرج ... أمه كانت نصف مجنونة بعد الزواج ... ضاقت ببساتين التبغ ، ورائحة الارض ، وملء الجرة من النبع ، وقررت أن تعود الى الزيتونة ، وان تجهض الطفل — علي — الذي نبت في أحشائها ، والذي صارت تجد فيه المانع الوحيد بينها وبين العودة الى الزيتونة والبيك والكسل ... ولم أقل له إنها بعد ان ولدته أصيبت بنوبات جنون كادت تقتله في واحدة منها لو لم أخلصه ، واركض به الى المختار اطلب العون ، وحين عدنا ، وجدناها تقفز بين بساتين التبغ كتلة من اللحم المحروق والعويل ورائحة الكاز الذي سكبته على نفسها منتحرة ...

لم أقل له هذا كله حينما كان يصب نقمته على زوجتي الفلسطينية امتثال وقريبها جول ... لم أقل له شيئاً ... كنت اعتقد انه لا بد وان يفهم وحده ذات يوم ... ثم انه ابني البكر ، علي ، حبيبي ، ولم اتصور قط انه سيصب حقده على شقيقته « خضراء » ، حتى وانا احملها بين ذراعي مثل عنزة مكسورة الساقين صرخ بي ، ولن انسى صوته : اتركها تموت ... اتركها تموت هنا في الحقل ... سيراها الاسرائيليون ويكفون عن هجماتهم فهم بلا ريب يعرفون انها عشيقة جول الفدائي ... وعويت به : ولكنهم لا يريدون دمها ... يريدون الارض ... يريدون أرضي ولحمي وبيتي ... هذا هو شرفي ... وتمتم علي ابني وابن تغريد : المهم شرف البنت ! .. تراه يحاول ان ينتقم من أمه في شخص شقيقته ؟ .. أم تراها لعنة السماء لذلك الزواج المشؤوم من تغريد ؟ .. تركته يكسر اغصان التبغ التي يختبىء بينها في الظلام ، وظللت اركض « بخضراء » وهي تنزف بين ذراعي) ..

الكلب بين ذراعيه يتأمله ويتململ بين ذراعيه كأنه يحتج على خشونتهما ، لكنه يركض به على السلم الى (الكاراج) ... يشعر برغبة هائلة في أن يعصره بين قبضتيه حتى يخنقه ، لكنه يكبت هذه الرغبة حين يتذكر اولاده الكثر الذين عاهد نفسه على ان يبقيهم في المدرسة بأي ثمن ... بأي ثمن كي لا يصيروا مثل ابنه البكر علي ... (ابني علي خرج من يدي ... يكره العمل بالتبغ ويقول انه لا يشبع من جوع ويفضل العمل « بالحشيش » والاتجار به ... لقد كنت منذ البداية مشغولاً عنه بالشجار مع أمه تغريد ... ويوم لحق بي استاذ القرية قائلاً ان ابني علي صبي ذكي ، ومن الضروري بقاؤه في المدرسة ، ومن الضروري ان نتعاون على تعليمه و ... و ... كنت افتل شاربي والهف للخلاص من حديث الاستاذ كي الحق بتغريد الى بيروت بعد أن كثرت زياراتها وقال لي صاحبي سائق التاكسي دعدس حدرج انها عادت الى رؤية « البيك » الذي كان يتردد عليها ... وبين تغريد والبيك ضاع علي ، ولم يتعلم حتى « فك الحرف » ... اولادي

من امتثال يجب ان يتعلموا بأي ثمن) .. يرقى درجات السلم الى عيادة الدكتور فراشيخ ... ببوش يعوي بين ذراعيه ... العيادة أنيقة ومزينة بالزهور وبصور لكلاب سعيدة مرفهة ... كل شيء مغطى بالابيض والطبيب يعقم يديه قبل ان يحتضن الكلب بكل حنان بينما تسارع ممرضة لتساعده

(لم يأت احد لمساعدتي حينما دخلت الى المستشفى الحكومي وطفلتي « خضراء » تنزف بين ذراعي ... مر بنا الطبيب ورآها تنزف عبر ثيابها الممزقة الفقيرة وتركنا ننتظر ، وحينما حاولت الاحتجاج لدى الممرضة سألتني ان كنت أحمل اجرة المداواة والتطبيب ... ومددت « خضراء » على بلاط المستشفى القذر وركضت كالمجنون في ردهاتها) ...

بو علي يقف مذهولاً محزوناً ، يتأمل الممرضة تمسك ببوش برعاية . والطبيب يتحسسه وينصت الى دقات قلبه ويفتح فمه ويتأمل لسانه واسنانه ثم يقول بصوت جاد وخطير كأنه يكشف صيغة قنبلة هيدروجينية جديدة : اعصاب ببوش متعبة ، وهنالك خوف من اصابته بانهيار عصبي ... الامر خطير ويجب ان أبلغ المدام لان اعصابه بحاجة الى المعالجة ...

وأدار الدكتور فراشيخ ارقام هاتف مدام فيردالونا بأصابع شنجها الخطب الجلل ، وتحاور معها بلغة لم يفهمها بو علي وكان له وجه ضابط كبير يبلغ اركان حربه خطة هجوم سري صاعق ...

ثم التفت الى بو علي مؤنباً : — لماذا لم تخبرني بأن ببوش سيشترك في مباراة انتخاب اجمل كلب اليوم !...

ظل بو علي مذهولاً ... وتابع فراشيخ مؤنباً : كدت احقنه بعشرين ميليغرام من مسكن الفاليوم ، وأفوت عليه المباراة بسبب سكوتك .. شيء فظيع هذا الاهمال ... يعد ابرة ويقول للممرضة ان تضع فيها ٥ ميليغرام « فاليوم » ويردد بينما يحقنها للكلب بكل رعاية : شيء فظيع هذا الاهمال ...

(الاهمال ! ظللت اركض في أروقة المستشفى وأصرخ بحثاً عن طبيب ... ووجدت نفسي من جديد امام ابنتي وقد صحت من جراحها وها هي

تئن ألماً وتقول : ارجوكم ... خدروني او اقتلوني ... فهذا الألم لا يطاق ... ساعات ظلت تبتهل كي نقتلها ولم تأت الابرة السحرية الا بعد ان وقعت اوراقاً لا اعرف مضمونها وان كنت اعرف ان لها علاقة برهن ارضي لدفع نفقات العلاج) ...

خفت عواء الكلب ، واسترخى بعد ان سرت الابرة في عروقه ... قال الطبيب لبو علي بخشونة : يجب ان ينام نوماً عميقاً بلا ازعاج ... بعد ساعات سيصحو منتعشاً ... الليلة بعد الحفل ، اذا بدا عليه الإرهاق ، قل للست ان تتصل بي وسأحضر لاعطائه ابرة منومة ... قل لها ان صحته بخير والحمد لله ، كل ما في الامر ان التدريبات لحفل الانتخاب قد أرهقت أعصابه فيما يبدو ، فهو رقيق وحساس ... غداً نبدأ تطبيق معالجة أكثر صرامة ... المهم ان يتناول اليوم طعاماً خفيفاً .. سلامته ...

ولما لحظ ان بو علي يتأمل ما يدور مشدوهاً انتهره بخشونة : هل سمعت ؟. غداً صباحاً احضروه الي ... والآن عد به الى غرفته ...

حمله بو علي بين ذراعيه وخرج به من عيادة الطبيب ... **(عشرة اولاد ... لم احمل ايهم قط من ، أو ، الى عيادة الطبيب ... مات منهم ثلاثة وبقي سبعة ... كانوا يمرضون ، يلتهبون بالحمى ، تتحول بشرتهم الناعمة الى كثبان من الرمل المحرق ... ثم يهمدون فجأة ، ولكنني لم أملك قط من النقود ما يجعلني اجرؤ على ان اقرع باب الطبيب ، واجرة السيارة اليه ، فأقرب طبيب يبعد عني مسيرة ايام .. كل ما أملكه لا يكفي لسد رمق الافواه الجائعة المفتوحة التي تنتظرني كل مساء ... وحمل ايهم الى الطبيب يعني موت ما تبقى منهم جوعاً ...)**

رمى الكلب بخشونة في السيارة وانطلق بها الى القصر في « اليرزة » .

فتح الكلب عينيه مؤنباً وعاد الى اغفاءته . فتل بو علي شاربيه لكنه أحس بهما بين يديه مثل صوف خروف ميت ...

« يا بو علي ... الست تريدك في غرفتها » ...

صعد اليها ... مر بالتمثال نفسه فأشاح عنه بوجهه . الست فيردالونا

غادرت فراشها ، وهذا معناه أنها ستغادر الدار ...

على رأسها باروكة شقراء (**أجد صعوبة في التعرف الى هذه المرأة كل مرة .. تخيفني الرموش التي تلصقها حول عينيها ... تذكرني بسيقان العناكب السود ... صحيح انني لا أخاف من الافاعي لكنني أكره العناكب**) كانت قد فتحت خزانة بدا منها ما يكفي لفتح دكان بائع احذية ، وكانت تبدل حذاءها وتتوقف أمام المرآة ثم تعود لتبدله ... وهكذا ... وكعادتها لم تلتفت الى بو علي وانما تابعت حديثها مع حلاق ببوش الخاص الذي كان يعقد على ذنبه أشرطة حريرية ملونة بعد أن أنهى (الشامبو والسيشوار) وقالت : صحيح ان الحفلة هي لانتخاب اجمل كلب ، ولكن على صاحبته ان ترافقه في الاستعراض أمام لجنة المحكمين ... وأنت تعرف طبعاً أن لهيئة صاحب الكلب تأثيراً على لجنة التحكيم ...

وقال الكسندر الحلاق متملقاً : يكفي ظهورك ليحجب جمالك جمال كلاب الجميع !!...

ولاحظ ان المجاملة لم تكن كما قصدها ، فبدل الموضوع قائلاً : صحيح انهم جاؤوا بلجنة تحكيم من انكلترا ؟.

وردت فيردالونا : أوه ... طبعاً طبعاً ... خبراء من أوروبا لرفع مستوى هذه الحفلات ... هذا ضروري ...

انتهى الكسندر من تثبيت عقد ثمين في رقبة الكلب وهمهم : طبعاً طبعاً ضروري ...

وتابعت فيردالونا : ثم أننا نقوم بهذه الحفلات من أجل الاعمال الخيرية والفقراء ... اننا نضحي من أجلهم (**منذ جئت الى بيت هذه المرأة ، وأنا لا أسمعها تتحدث الا عن الاعمال الخيرية . تشتري الثياب وتتمايل بها في الحفلات وتقول إن ذلك لاجل الحفلات الخيرية ... تسيل الويسكي في حديقة القصر انهاراً ويتهاوى السكارى فوق حشائش الممرات وزهورها ، ثم يصدح الخطباء من الميكروفون وأسمعهم يقولون أشياء كثيرة لا أفهمها**

ويتردد اسم الاعمال الخيرية كثيراً ... ويتردد اسم الفقراء ... ونحن الفقراء نجهل حتى انهم يتاجرون بجوعنا لتخمتهم) .

الست « فيردالونا » تبدل حذاءها وهي تتابع : هذه هي الحفلة الخيرية العاشرة التي نقوم بها هذا العام لصالح الفقراء ... وكان آخرها حفل عرض أزياء ... وحفلة عشاء راقصة و «كوتيون » ويانصيب ... اننا نعمل كثيراً ... أوف ... تعب وارهاق من أجل الفقراء ...

(قال جول الصالح الفدائي قريب زوجتي امتثال : يا خضراء ، الجمعيات الخيرية في افضل حالاتها هي صمام لامتصاص نقمة الجماهير ... وبدت علينا جميعاً امارات عدم الفهم ... فقال وقد خص بكلماته ابنتي خضراء : الناس الذين كنت تشتغلين عندهم كخادمة ، هل يطبخون بطنجرة « بريستو » ؟ ... أجل ؟ حسناً ... اتذكرين صفارة الطنجرة وصمامها الذي يحول دون انفجارها كلما زاد الضغط داخلها بتفريغه للبخار المضغوط ؟ هذا ما تحاول أن تفعله بعض المؤسسات التي تسمي نفسها خيرية ... انها تعطي بعض الناس القليل كي لا يثوروا من أجل الكثير الذي يستحقونه ، أي انها تعطي البعض القليل كي تظل على ابتلاعها للكثير الذي هو أصلاً حق من حقوقهم ... ولما تأكد من اننا لم نفهم شيئاً قال باختصار : السيدات اللواتي مررن بكم اليوم دجالات جئن في نزهة الى الجنوب ومررن ببعض البيوت في طريقهن ... كل الوعود كاذبة ... هذه الأرض ستضيع اذا لم نتعاون على انقاذها بالقوة ... لا الجمعيات الخيرية ستنقذ اولادكم ولا أحد سيتحرك ليدافع عن الارض اذا لم تفعلوا انتم ...

ابني عمر ، اكبر أولادي من امتثال كان قد عاد لتوه من مدرسته البعيدة ودخل وسمع الحوار فقال لجول : كفاك مواعظ ... اذا لم تنسف هذه الدار لن يفهم أحد شيئاً ...

ونسفت الدار ...

بعد انصراف سيدات الجمعية الخيرية من المقهى حيث أكلن وشربن وعدن بسياراتهن الفاخرة الى بيروت ، جاء الجنود الاسرائيليون في غارة من غاراتهم المعتادة ... أضاؤوا الانوار الكشافة . طلبوا بالمكبرات ان يخرج جميع سكان القرية من بيوتهم . خرجنا .. لاحظت ان ابنتي خضراء اختفت هي وجول ... عرفت انها ذهبت به ليختبىء في المغارة حيث كانت تلعب أيام صغرها ... المغارة المسكونة بجنية طيبة كما يقولون ... صارت المغارة اليوم ملجأ للفدائيين ... وقفنا صفاً طويلاً . نادوا علي باسمي . كيف عرفوه ؟ بالعربية كانوا يتحدثون وقد زاد ذلك في خوفي . سألوني أين بيتي . أرشدتهم اليه بنظرات صامتة . كانوا يعرفونه فيما يبدو . قال لي أحدهم : سنكافئك على ايوائك للارهابيين والمخربين ...

وبسرعة ... زرعوا بعض الرزم قرب أساس بيتي ومدوا بعض الاسلاك وبعد دقائق كان البيت بأكمله يتطاير في الهواء ومعه تتطاير صور خمسين عاماً من حياتي فيه ...

وكنت أتأمله بذهول وصمت وقد سددت أذني عن ضجيج الانهيارات وأغلقت عيني بشدة ... لا أدري متى فتحتهما ولكن حين فعلت كان الجنود قد ذهبوا والصمت يحكم المكان الا من بعض الانتحاب الخافت حولي . وبحثت عن حذائي بين الانقاض ، فقد أدركت فجأة انني سأقضي بقية عمري راكضاً في الارض بلا حذاء) .

* * *

يا بو علي ... بسرعة ... احمل ببوش ... تأخرنا ... حمل بو علي ببوش ورغم ان وزنه لا يتجاوز كيلوات عدة الا أنه أحس بظهره ينوء وهو يهبط به الدرج الى السيارة ... أمام باب القصر انضمت اليهما عائشة زوجة جارهم محفوظ بك ، أو (شاشا) كما يلقبونها ... **(اسم عائشة جميل ... لماذا ينادونها شاشا ؟ أول بنت أحببتها كان اسمها عائشة ، كانت ابنة المختار ومهرها خمس بقرات ... أذكر جيداً انني كنت**

ألمحها ليالي قطاف التبغ مع والدي ، وأحلم بها كلما طارت يعسوبة من تلك الحشرات المضيئة الجميلة ، وكلما قطفت نبتة تبغ رددت اسمها ... عائشة عائشة . وأقطف وأنا أكرر اسمها كما لو انني ممسك بمسبحة من أصداف العالم كله ، ومع كل صدفة أكرر اسمها) ... في السيارة تمنى لو يطلبون اليه ادارة المذياع كي يستمع الى الاخبار ... انه قلق هذا اليوم ... خائف من احراق بقية المحصول ومن هجوم جديد على أراضيهم ... وعليه أن يدفع اقساط مدارس الاولاد (بعد أن هدموا داري نصبت في موضعه خيمة ثم بيتاً من التنك وصرت لاجئاً في أرضي ... ذلك كله لا يهم . المهم ان يتابع الاولاد دراستهم ليفهموا كلام جول ومحمد ورفاقهم وليفهموا كل الكلام الذي لا أفهمه ... في الليل والنهار ، نتسلل الى أراضينا كالسارقين لنقطف بعضاً من جني موسمنا ... في العام الماضي زرعنا الارض ، وشقوا طريقهم في أرضي وأخذوا قسماً منها ، والمحصول الذي زرعته حصدته جراراتهم وجرافاتهم ... وما تبقى لنا من أرضنا صرنا نتسلل اليه لنسرق محصوله سرقة ... أشجار الزيتون ... والتين ... والتبغ ... أين أين أين ؟ .) ...

قالت له الست فيردالونا : راديو من فضلك ...

فرح ... كانت نشرة الاخبار في أولها ... قالت بملل : قلت لك اذاعة بيروت الاجنبية، نريد أن نسمع موسيقى ... برنامج (توب أوف ذي بوب) ...

وتدفقت الموسيقى المسعورة في السيارة وبدأت شاشا تقول بصوت تجهد ان يغطي الموسيقى .. كلبك « الكانيش ماكسي » سيربح حتماً .. منافسه الوحيد هو — « اليوركشاير الرمادي » الذي تملكه لينا ... والكلب « البوكسر » الذي اشتراه رورو مسعود من لندن مؤخراً ... ومعه شهادات أصل وفصل ...

ترد فيردالونا : لا أعتقد ذلك ... المنافس الوحيد لبوبوش هو البولدوغ البولندي الذي تملكه كوكيت عشور ... فصاحبته صديقة للانكليزي الذي جاؤوا به للجنة التحكيم ويقال ان بينهما علاقة منذ كانت هي عزباء وتدرس بلندن و ... و ...

واستحال حوارهما الى همس . وعرف بوعلي انهما تنهشان (عرض) صديقتها الحميمة الست (كوكيت) ... وعاد صوت فيردالونا : ببوش أجمل (بودل) في العالم وسيكون الرابح الوحيد ...

(اسرائيل هي الرابح الوحيد . قالها عمر بينما كان الشجار بين ابنه علي وجول خطيب شقيقته يتعالى ...

علي يرفض زواج شقيقته خضراء من جول . يقول لها إن الزواج من فدائي معناه الترمل القريب والفقر والتشرد ... وجول يقول له : ستصيرون جميعاً مشردين محكومين بالفداء وستصير زوجاتكم ارامل اذا لم تقفوا معنا لنحارب معاً ... ابني علي يعتقد أن جول ورفاقه هم سبب مصائب القرية وويلاتها ... امتثال زوجتي صرخت به : قبل أن يجيء جول ورفاقه كنا فقراء وتعساء ومهملين . لم يتبدل الشيء الكثير ، وانما عجل قدومهم بالاحداث التي كانت محتومة ...

أخرسها ابني علي : أنت فلسطينية وابنتك مثلك وجول قريبكم ولكم مصالح ...

وبدأ يشتمها ... ومن عينيها أطلت نظرة من يريد أن يدافع عن نفسه ... عرفت أنها ستذكره بأمه الراقصة تغريد ... لكنها سكتت اذ تدخل عمر بين علي الذي هجم على أخته يريد ضربها ، وجول الذي وقف مدافعاً . ليت عمر كان أكبر سناً .

ومضى جول وقال علي منتصراً : جول لا يريد حتى أن يتزوج . يريد أن يتسلى ببنات القرية مثل بقية رفاقه ... وكنت أكثر حزناً أو تعباً من أن أرد ... أنا المسؤول ... لو سمعت كلام أستاذ القرية لما كان « علي » هكذا ... لكنني كنت مشغولاً بمطاردة أمه في أزقة الزيتونة ... كانت تهرب الى عشيقها البيك من وقت لآخر ... لو باحت لي مرة باسمه لقتلته .. ولكن ...) .

– توقف يا بو علي ... ماذا دهاك ؟

ولاحظ انه تجاوز « نادي التكتكة » ولم يتوقف أمامه . صوت فيردالونا يتابع زجره : ماذا بك اليوم ... هل أنت مريض ؟

وبدأ الكلب بالنباح ... دوماً ينبح الكلب في وجهه حينما تؤنبه الست كأنه يشاركها تحقيره في وصلة من النباح ... يستنجد بو علي بشاربيه ويفتلهما ويخيل اليه أنهما صارا رماداً .

زحام امام باب النادي ... شرطة سير وسيارات فخمة ورجال وكلاب

(دخل الاسرائيليون القرية ومعهم كلاب مخيفة شرسة فانتظمنا في صف واحد ... كانت كلابهم كالذئاب الجائعة وكانت تمطر ، وبدأ اطفالي بالبكاء وحاولت فتل شاربي وشعرت للمرة الأولى بأنهما ماتا ، كنت فيما مضى أحس بهما شيئاً حياً ينبض وينتصب ، وشعرت أن شرايينهما تقطعت وأعصابهما قد شلت وأنهما انسدلا فوق فمي كجثث الطيور المصابة) ...

يا بو علي احمل ببوش . لا أريد له ان يتعب ... حذار من تخريب تصفيفة شعره ...

تتقدم الست فيردالونا الموكب مع شاشا وهو يسير خلفهما كأنه في جنازة هو المشيع فيها ، والممدد في تابوتها في آن واحد ... تتوقف أم ببوش (كما يحلو له أن يسميها حين يحدث زوجته امتثال عنها) مع بعض الصديقات ، ويسمع احداهن تقول إن الاسرائيليين يتابعون اعتداءهم على قرى الجنوب والحالة خطرة ...

ترد شاشا : ما لنا ولهم ؟... وتقول فيردالونا : المهم أننا بخير ...

(ولكن هل أشجار زيتوني بخير ؟ وأولادي ؟ وزوجتي ؟ وجول ورفاقه ؟ ... لا بد لي من الاعتراف بانني أحببتهم ... حينما يتحدثون يردون الروح لشاربي ... اذن يضربون الجنوب منذ الصباح ؟ ...

عيترون ، هل بقي فيها حجر على حجر ؟

وأطفالي ؟

وأشجار الزيتون ، أراها تحترق في الحقل مثل رجال راكضين في

المدى وقد اشتعلت النار في شعرهم ورؤوسهم ...

وغداً مع الصباح سيأتي رجال يحملون آلات التصوير ، ورجال آخرون ليتصوروا أمام أطلال بيوتنا كأنها خرائب بعلبك الاثرية ثم يختفي الجميع ونبدأ نحن بمطاردة مجلس قيل إن اسمه « مجلس الجيوب » أو « مجلس الجنوب » أو شيء من هذا القبيل ، ٢٥ الف ليرة قيمة التعويض الذي قيل اني استحقه ... والنتيجة ، ٣ آلاف ليرة دفعتها أقساطاً لاولادي لم أقبض بعدها قرشاً ثم اسكتني (بيك) مجلس الجنوب نظوم افندي الحسباوي واتخذ مني سائقاً ...

والارض هناك تحترق ... والرجال يموتون ... والرجال هنا يرقصون ... والكلاب تستحم وتتزين وتتأنق وتقام الحفلات على شرفها ... عجيب أمر هذه المدينة ... يبدو انني لم أعد قادراً على فهم شيء مما يدور فيها ... الليلة سأهرب من هنا ... سأعود إلى أرضي . سأسرق (الجفت) الذي يستعملونه للزينة في مكتبة البيت وأذهب به لادافع عن أرضي ... سأقتل كل من يقترب ... سأسرق البندقية – حتى البنادق يستعملونها في هذه المدينة للزينة – .

سأسرق وسأقتل أول اسرائيلي يدوس أرضي.. لماذا لا أقتل ؟

ذات مرة كنت على استعداد لقتل البيك الذي كان ينفق على تغريد ... لو عرفته لقتلته يومها ... لماذا أنا قادر على القتل من أجل تغريد وعاجز عن القتل من أجل شجرة زيتون ؟ ...)

ممنوع الدخول !...

قالتها امرأة نصف عارية تقف على باب ملعب « نادي التكتكة » .

« الكلاب وأصحابها فقط يدخلون من هنا . الخدم من الناحية الاخرى » .

وهنا وضع السيد ببوش أرضاً وترك ام ببوش تمسك به و تختال الى الداخل ، بينما توجه الى الطرف الآخر من الملعب حيث يقف سائقو السيارات والخدم والحاشية والوصيفات ...

كان البشر في هذا الملعب ينقسمون الى قسمين متواجهين ...

الكلاب وأهلها من جهة ، والحاشية من جهة أخرى ... وبينهما أرض الملعب ...

وكانت كل من الفئتين ترمق الاخرى بنظرات أقل ما فيها يدل على العجز عن التفاهم رغم أنه من المفروض انهم جميعاً يعرفون لغة واحدة مشتركة على الاقل ...

وفي أرض الملعب بدأ الاستعراض ...

كلاب ورجال ...

كلاب وسيدات ...

موسيقى ... ميكروفون ... أرقام ...

واخيراً الكلب الفائز

وبينما أحدهم يعلن على الميكروفون اسم ملك جمال الكلاب سمع الجميع دوياً هائلاً اذ مرت طائرة فوق الملعب وغطى صوت محركها على كل صوت آخر **(تراها قادمة للتوّ من عيترون بعد أن أحرقت كل ما فيها ؟ وأولادي ؟ وأشجاري)** ... ومرت الطائرة وأعلنت أسماء الكلاب الفائزة وتم تبادل القبلات بينها وبين أصحابها ولجان التحكيم ومنحت الكلاب المدللة الكؤوس الذهبية والميداليات ، كل ذلك ومئات من أمثال بو علي واقفون مشدوهين يتأملون ما يدور بذهول ... حاول بو علي أن يفتل شاربيه فعجز عن ذلك كأن يديه قد شلتا ... ووجد نفسه بدلاً من ذلك يغطي عينيه بيديه بينما مرت طائرة أخرى لتحط في أرض المطار القريب **(أرى البيوت هناك تحترق بيتاً بيتاً ... وخيمتنا فوق أطلال البيوت تحترق ... وأطفالي يلتهبون بالنابالم ... وخضراء ... وامتثال .. وعلي ... ليت « علي » يحمل السلاح ... ليته يحمل السلاح ويقاتل)**

وبدأ بو علي يتلو صلاة صامتة ، يكرر بذهول : ليت « علي » يحمل السلاح ... طوال طريق العودة الى القصر ، ورغم نواح أم ببوش لان ببوش لم يفز بأية جائزة ، ورغم زعيق الراديو الذي توقف عن بث الاغاني

الغربية وبدأ باذاعة موسيقى كلاسيكية لسبب لم يفهمه بو علي ، ورغم شتائم الست شاشا لعدم فوز العزيز ببوش ، ظل بو علي يكرر بذهول : ليت « علي » يحمل السلاح ...

وصل الجميع القصر مع غروب الشمس... **(يا ليلة الذعر في عيترون ... سأسرق « الجفت » عن جدار المكتبة وأذهب الى هناك)** حمل الكلب كعادته ولحق بأم ببوش التي ساح ماكياجها وسقط أحد رموشها وشاشا التي بدأت تشاركها البكاء لسقوط ببوش في انتخابات ملك جمال الكلاب ، وفي المكتبة كان نظوم بك الحسباوي مع صديق له جالسين ... مرت بهما أم ببوش وهربت تتابع البكاء بعدأن ضمت ببوش الى صدرها وعاد بو علي الى المكتبة وقد استقر رأيه على استئذان البيك بالذهاب الى قريته لتفقد الاحوال ... دخل ولم يشعر به البيك وصديقه فقدكانا يتجرعان الويسكي ويتسامران ... قال صديق البيك : صارت زوجتانا هرمتين وبشعتين ...

ونحن أيضاً هرمنا ... ما كان أحلى أيامنا مع تغريد وكهرمان وجواهر ... **(تغريد ! هل يمكن أن يكون هذا هو « البيك » نفسه ؟ .. وهل يعنيان تغريد نفسها ؟ أم علي ؟ .. ولكن ما الفرق ؟ ... أريد الجفت الآن لا لأقتل البيك وانما لاذهب الى هناك ... هناك حيث الحقيقة الوحيدة) ..**

ورغم كل شيء غص بو علي بالبكاء فذهب الى مقعده بالمطبخ وارتمى فيه قليلاً ثم انسل الى كوخه الخاص في حديقة القصر ...

بين يديه دفن رأسه وانزلقت الاعوام أمام عينيه وعبثاً حاول استمداد العزاء من فتل شاربيه كعادته ... كان لهما ملمس الرماد . كان قد تم اغتيالهما بطريقة ما ... ولكن وجد العزاء في تكرار صلاته : ليت « علي » يحمل السلاح ... أنا انتهيت ... ضعت ... هرمت ... ليت « علي » يحمل السلاح ...

(هناك حركة خلف الكوخ ... اني متأكد من ذلك) ...

يسير بهدوء ملتفاً حول كوخه ... يرى على الارض آثار دماء ... نقطة نقطة ... يلحق بها ... نقطة نقطة تلتمع في النور القوي الذي يشع في الحديقة ليلاً خوفاً من السارقين أو لتخويفهم ...

على الارض شبح يتلوى ألماً ...

يصرخ بو علي : ابني ... علي ... جريح ... اذن حملت السلاح ...

ــ حملت السلاح !

ــ وحاربت !

ــ لا . حاولت قتل أختي دفاعاً عن العرض . ضبطتها تحاول الهرب مع جول الى المغارة منتهزة فرصة الغارة الاسرائيلية ... ادعت أنها تريد أن تحارب معهم وتنضم اليهم ... هجمت عليها بالخنجر لأذبحها من الوريد الى الوريد ...

ــ وبعد أن قتلتها حاربت وجرحت ؟...

ــ لا . اختي « الوغدة » جرحتني !... كانت مسلحة ! تصور ... وتحكم التصويب أيضاً ... قالت لي هذه المرة سأخدشك ، وفي المرة الثانية سأقتلك !

ــ ثم ؟

ــ ثم قتلتها طبعاً ... لم أهرب وانما اختبأت ، ورغم جرحي انقضضت عليها من الخلف وقتلتها وهربت ... خبئني يا أبي ريثما يطلع النهار ...

ــ ثم ...

ــ ثم أذهب الى الشرطة لأسلم نفسي بكل فخر ...

ــ ثم ... عيترون ... ماذا حدث ؟... هل أحرقوا كل شيء ...

ــ لا أدري . لم أبقَ وانما هربت ... المهم انني قتلتها ...

يدمدم بو علي « يا ويلي » مرة واحدة ، ثم يصمت تماماً ... تسقط ذراعاه كمجدافين أكلتهما العواصف وأهوال الابحار ... ومن عينيه تطل نظرة حزينة كتلك التي تتوهج من دمعة متحجرة في تمثال عتيق على رف متحف لمدينة دمرها بركان منذ عصور ...

وفي الصباح لا يلحظ أحد أن شيئاً تغير في بو علي سوى انه حلق شاربيه .

ولم يشك أحد به حين وجدوا ببوش بعد أيام في الحديقة مذبوحاً من الوريد الى الوريد ...

الساعتان والغراب

ريكـــاردو ...

موجع أن تمرض في فندق ... فالمرض ترف لا يقدر عليه الناس الوحيدون امثالي ..

وهذا يومي الثالث وانا محمومة ، مرمية في فراش ، وقد بدأت ارى النمل يخرج من وسادتي .. ليأكلني ..

ها هو صرصور يتحرك بين أكوام العقاقير الى جانب السرير ، والمروحة الضخمة تركض في السقف ومن الخارج تهب رائحة عدن الخاصة واصواتها وهمهمات المارة تحت الخص الخشبي .

ريكاردو ... يا ريكاردو ...

عبثاً استعيد ذكراك ...

عبثاً ألملم ملامح وجهك في ذاكرتي واعيد لصقها من جديد ...

عبثاً اتذكر صوتك ، والسنوات الخمس التي عشناها معاً ايام دراستنا الجامعية وبعدها ... وضحكاتنا المخمورة المجنونة في ليالي باريس وجنيف ..

والبيت الذي أسسناه معاً ، واشترينا كل كرسي فيه معاً ... وحتى علبة الملح ، وصندوق الخبز ، ومكعبات البراد التي ضحكنا طويلاً لأن لها شكل قلوب ...

عامان بعد الجامعة وكل لحظة نعيشها معاً ... نخطط فيها ليوم زفافنا الذي كان من المفروض ان يتم اليوم... واليوم، إذ افكر بك ، احس ان قلبي يستحيل ثلوجاً كتلك المكعبات التي اشتريناها .. اليوم .... بيني وبينك قارات وبحار ومئات الاميال ...

طائرة ؟ اجل . الطائرة تستطيع ان تلتهم هذه المسافات في ساعات ... ولكن . ما يقف بيني وبينك اليوم لا يمكن لشيء ان يلغيه الا الموت ... لانه ليس الرجل الآخر هو الذي يحول بيني وبينك ... إنه « أنا » ... أنا الحقيقية التي ايقظها الرجل الآخر وكنت اظنها ماتت منذ زمن بعيد ...

ريكـــاردو ...

عبثاً استعيد ذكراك ...

عبثاً ألملم ملامح وجهك في ذاكرتي ..

عبثاً أصدق انني حقاً كنت هناك ، وقضيت طفولتي ومراهقتي هناك بين باريس وجنيف ، وانني حقاً عرفتك ... عبثاً اشعر بالذنب تجاهك .. ذاكرتي ... احسها مثل ابرة حاكٍ صدئة تركض على اخاديد اسطوانة الماضي وتحاول عبثاً ان تبعث في اهترائها صوت الايام الغابرة ... اتساءل : احقاً كنت هناك ، ام أن كل ما كان كان حلماً ، وها انا قد عدت الى ارض الحقيقة وأرضي الحقيقية ؟...

ريكـــاردو ...

نسيت !... لنقل ببساطة انني نسيت !...

ولكن الأمر ليس بهذه البساطة

لم انسَ .

الامور اشد تعقيداً من ذلك ... واحس وأنا الاحقها انني سجينة شرنقة من الخيوط الجهنمية الحبك ، عبثاً التقط بداية الخيط وأفك الشبكة ...

ريكـــاردو ...

حتى صورتك التي استخرجها من تحت وسادتي ، أتأملها دون ان ينبض في اعماقي وتر . كأني ارى صورة رجل لا اعرفه . لا اكرهه ولا احبه ولا دخل لي به ، ولا ادري من الذي دس بصورته تحت وسادتي !...

نعم ! عيناه واسعتان خضراوان. الشعر كستنائي ومضيء والابتسامة حارة على شفتين كأنما فرغتا للتو من قبلة مسعورة ... ولكن ما شأني بهذا كله ...

وحينما أحاول ان استزيد من النظر الى صورتك ، تزوغ ملامحك وتتلاشى مثل رماد لفافة ... واعجز عن مزيد من الرؤية ... ربما كانت هي الحمى التي تأكلني منذ ايام ثلاثة ...

وربما كانت هي المروحة التي تـــدور فوقي في السقف بأذرعها الحادة ... تدور تدور تدور ... احس شفراتها الحادة تمزق افكاري مع كل دورة ... تشتتها ... المروحة ... والحر ... الحر الذي لا يستطيع اوروبي مثلك أن يفهم كيف يخرج من شقوق الارض واحجارها وصخورها ومن البحر ومن الناس كما يخرج الضباب في بلادك ...

(هل تذكر يوم حملتني الى معمل والدك للكبريت في ضواحي جنيف ليلة رأس السنة الماضية ! ... هل تذكر اللهيب الذي كان يفوح من موقد المعمل حيث امتلكتني على الارض الموسخة بالفحم والوقود ، المخططة مثل لوحة سيريالية للشهوة تحت جسدي ؟

هل تذكر ؟ كانت ليلة باردة . قلت لك : يدهشني كيف ينجب الناس اطفالاً في اوروبا ، ففي هذا البرد ، كيف يفكر الناس بخلع ثيابهم ولو لدقائق ، وحتى في شهر العسل ! ... قلت لي : ولكنك عشت حياتك كلها في اوروبا ... صرت واحدة منا ...

ــ لا . لم أصر واحدة منكم ... فقط عشت معكم ...

ــ هل انت مصرية ام سورية ؟ لم اعد اذكر ...

ــ لا فرق . لكنني يمنية من صنعاء . والدي قريب للسلاطين او مقرب منهم لا فرق . أمي ماتت ، وابي بعث بي الى مدارس اوربا الداخلية منذ كنت في العاشرة من عمري ... اغلى المدارس ... ولكنني لم اره قط بعدها حتى في الاجازات ... كان اصدقاؤه يأتون الى المدرسة . يدفعون اقساطي . يرتبون لإجازاتي ... صرت اتخيل ان والدي هو رقم لرصيد في احد بنوك جنيف وانه مثل كل الارصدة سري الرقم ، وصعب الحصر .

ويوم خبرني اصدقاؤه بحزن مفتعل نبأ وفاته ، وكان في وجوههم التعبير نفسه الذي لوجه ساعي بريد مكلف بحمل برقية نعوة ، مهذب وعابس ولا

مبال ، طلبت منهم ان يوفروا على انفسهم عناء الحزن ... فأنا لم احزن . كان ميتاً منذ زمن بعيد بالنسبة الي . كان مجرد حساب في البنك ، ولما عرفت ان حساب البنك يكفي لإعالتي كي اتابع دراستي قلت لهم : اذن ابي الذي اعرفه لم يمت وهذا هو المهم ...

ـ فلننس هذه الذكريات المحزنة . قررت أن امنحك دفء بلادك هذه الليلة ... ما رأيك بأن نقضي ليلة رأس السنة في فرن ؟ ...

ضحكت للفكرة . سألتك : هل هنالك مطعم جديد في جنيف اسمه « الفرن » ؟ ...

ـ لا . بل في فرن حقيقي . لقد اعددت شرائح من الجبن وزجاجة نبيذ معتق ، وسنقضي سهرتنا في معمل أبي للكبريت .. بالضبط في غرفة الوقود . لقد رشوت العامل وسيسعده ان يخلي لنا المكان ...

قرب الفرن النفاذ الحرارة ، اغمضت عيني ، ومنحتك جسدي ، وحلمت اني في ضاحية بصنعاء ، في الصحراء، خلف الجبل الاخضر ، ممددة فوق الرمال الحارة ــ حيث كانوا يأخذوننا من زمان اطفالاً للنزهة ــ الرمال حارة تحتي ، وأنا زنبقة الصحراء السوداء اسكب في الليل بعضاً من الوهج الذي سكبه فيّ ، اعكس اليه الرعشات التي طالما شحنني بها ، انا ليلى التي استطاعت ان تكون لقيس ، وانا عبلة في احضان عنترة ، وانا شهرزاد بعد ان كفت عن الكلام « المباح » وبدأت تعبر الجسر الى نشوات « اللامباح » ، وانا كل نساء صنعاء وكل شهواتهن الخارجة من ازقة مدينتي الضيقة الى دفء الصحراء في ليالي اليمن) ...

اذكر جيداً كم استمتعت بي يا ريكاردو تلك الليلة ... وانا كنت اظنني سعيدة بجسدك ... ولكنني الآن فقط أعي انني لم اكن اضاجعك وانما كنت اضاجع الصحراء الحارة تحتي ... وكنت اتحد بذكرى وطني ، بذكرى حره اللاهب ، رغم سنوات الفراق ، لم اكن قط اوروبية حقاً، ولم اشعر حقاً بأي انتماء . لم ابال قط بأخبار صحف المدن التي عشت فيها ... لم

اناقش قط في مشاكلهم ، ولم الاحق قط قضاياهم . كنت مثل السنونو الذي ينتظر بغريزته ودونما تخطيط قدوم الربيع ، كي يعود الى سربه والى حقله ...

كان صقيع اللامبالاة الذي أحياه يرمي بي الى ضجر ينزف من حواسي كلها ... كنت اشعر انني مقيدة الى قطار رتيب يركض بي بلا نهاية في سهوب من الثلوج ، دونما اية محطة ، او تبديل في سرعته ، او حتى حادث اصطدام.. كنت احلم بالكوارث بشهية واقرأ اخبار الحروب والزلازل بحسد ! (هل تـــذكركم كنت افرح حينما أصاب بالانفلونزا او (الجريب) أو ايـــة حمى ؟ شيء ما في طقس بلادكم كان يرفضه جسدي ... وكان جسدي يحتج ، وكان احتجاجه باستمرار حمى ورشحاً وبرداً ...

وكنت افرح بالحمى ...

كنت افرح برعشة المرض ... تلك الرعشة ... تلك القشعريرة التي تهز اوصالي ... كانت الرعشة الوحيدة التي تمر بحياة تلك البائسة المقيدة الى قطار سهوب الثلوج اللامتناهية .. كنت تضحك مني ، يا ريكاردو ، حينما ازف اليك بفرح نبأ مرضي ...

لم تكن تفهم قط معنى روعة تلك الرعشة بالنسبة إليّ ...

كنت تظنني غريبة الاطوار...

وتضحك مني ...

وكنت أحس بالخيبة ... فانت كاسباني الأصل ، في دمك بعض من دمي ... او هكذا خيل اليّ في البداية ... ومن المفروض ان تفهم بعضاً من جنوني ...

وميشيل الفرنسي زميلنا في الجامعة كان يتقن التقبيل اكثر منك ، وتنميق الالفاظ والتحليلات النفسية الفرويدية ...

وريتشارد الانكليزي كان افضل منك في لف سجائر «الماريوانا» وصنع مخدر ال (ال . اس . دي) في مختبر الجامعة ...

وولفجانك الألماني كان حصاناً في مرج المتعة لا مثيل لأصالته ووحشية ركضه ...

لماذا انت ؟ ... ربما كان ميشيل على حق يوم قال بعد ان رفضته : انك تفضلين ريكاردو لمجرد انه اسباني . انه الدم العربي فيه هو الذي يشدك اليه . انك رغم كل قشورك ما تزالين عربية صحراوية ، وبالرغم منك تنجذبين لكل ما يذكرك بهذه الحقيقة ... وضحكت منه ... ضحكنا معاً) ..

وكنت اظنني احبك يا ريكاردو ...

حتّى التقيت هنا بفضل ..

فضل .. لن تستطيع لفظ اسمه ، ففيه حرف الضاد .. فضل . عربي الاسم . عربي اللسان . عربي الوجه . عربي النزق .... عربي العطاء ... عربي الثورة والكفاح والألم ...

انني اهذي ... اعرف انني اهذي .. فضل عربي الجسد، ففي قدميه ما تزال آثار سلاسل وقيود الجلاد الانكليزي .. انني اهذي .. ثلاثة ايام وانا مرمية هكذا ... والحر يسوط عدن ... والحمى تلهبني ... والمروحة الكهربائية في السقف تدور وتدور .. وحتّى حينما اغمض عيني تظل هي تدور ، واظل عبر جفوني ارى ظلال شفراتها ...

ثلاثة ايام منذ أصبت بهذه الانفلونزا المدارية التي لم يألفها جسدي ... اليوم فقط بدأت ارى النمل يخرج من وسادتي وصرخت هلعاً وادعت الممرضة انني واهمة وانها الحمى . لا مناعة لدي في بلادكم . ولا مناعة لدي ضد امراض وطني ... انا شتلة عاشت في غير ارضها ، وعبثاً تعيد انغراسها في ارضها الأم ... طحلب هجين انا ، ولا نجاة لي ...

فضل يقول انني سأنجو ... انه يضحك من مخاوفي ...يقول ان وطني بحاجة اليّ .. آه كم انا هشة .. تلفظني ارضي كما تلفظ التّربة البركانية اية نبتة هزيلة .

في اليوم الاول لمرضي لم اكن خائفة ... كعادتي فرحت بالحمى ...

فرحت بالقشعريرة الشرسة التي تستولي على جسدي كله ...

ولكن الحمى هذه المرة من نوع لم آلفه ... وها انا اتلاشى شيئاً فشيئاً ...

وحتى قشعريرة الحمى لم تعد تهزني .. صرت مثل ارض رخوة حل بهـا الزلزال فلم يجد ما يهزه ... لا قشعريرة ... مجرد نار تشتعل في خلايا جسدي كلها .... يخيل الي ان النار التهبت فيّ منـذ وصلت الى هذه الارض ، كأنني كنت مرصودة للمجيء وللاحتراق هنا ، كأن العودة الى النبع كانت محتومة ... والاسماك ترجع دوماً لتموت في المغاور التي شهدت ولادتها ..

في جنيف قبل أن اجيء الى هنا ، كنت اظن الأمر مجرد مغامرة صحفية اخرى...

(قال رئيس تحرير المجلة التي كنت اعمل فيها منذ تخرجت من الجامعة : نريد محرراً يطير الى اليمن الجنوبية ويحاول الوصول الى مسقط للكتابة عن حقيقة الثورة منها ... ما رأيكم ؟

تململ المحررون . كرر رئيس التحرير : ان اية ثورة في اي مكان في العالم أمر يخص الانسانية كلها . ومن واجب الصحافة ان تحقق في حقيقة هذه الثورة ، ومدى اصالتها ، ومدلولها ...

قلت له : انا سأذهب ... انت تعرف انني يمنية الأصل .

ــ والدك من السلاطين وقد لا يُسمح لك بالدخول .

ــ لا اظن ذلك ... على اية حال يمكننا ان نبرق لهم .

ــ حسناً . انت تعرفين العربية وهذه ميزة في رحلة كهذه . حسناً . رتبي الأمور مع سكرتيرتي .

وتدخل زميل كان يطمع في الرحلة : ولكنك ستتزوجين هذا الشهر ! ...

ــ يستطيع الكاهن ان ينتظر قليلاً . هذه رحلة طالما تمنيت القيام بها . سأطير الى عدن ثم احاول الوصول الى مسقط ، ومن صنعاء اعود الى جنيف ..

وليلتها غادرت المكتب وسرت طويلاً في شوارع جنيف المحيطة بمكاتب جريدتنا « نوفالا » ... امام احدى واجهات باعة الساعات توقفت طويلاً . لاحظت ساعة يد غريبـة ، ساعة مصابة بازدواج الشخصية ، فهـي تتألف من ساعتين داخل اطار واحد ... ولا ادري لماذا وجدتني ادفع كل ما كان معي من نقود ثمناً لها ...

وعدت بها الى البيت ، ولبستها في يدي بعد ان ضبطت الاولى على توقيت جنيف حيث أعيش ، وضبطت الثانية على توقيت الزمن في عدن ...

بعد اسبوع جاء الرد بالموافقة على استقبالي كصحفية اجنبية سويسرية !

وضحكت طويلاً امام المرآة . انا سويسرية . والليل في شعري وعيني ، وبشرتي الصحراوية ! .. انا اجنبية ؟ . وما معنى ذلك التوق المرعب الى ان اكون هناك ؟ .. ولماذا أرتجف وانا احمل بطاقة السفر وأقرأ اسم عدن ... ولماذا لم احس بشيء من هذا في رحلاتي الصحفية السابقة كلها ... الى نيويورك .. وهاواي ومدن اخرى طالما حلمت بها ؟)

آه كم رأسي ثقيل ... يجب ان اكتب شيئاً للجريدة التي اعمل فيها ...

منذ غادرت جنيف لم اكتب حرفاً واحداً .... منذ ثمانية عشر يوماً ... كنت اطوف اليمن ... اركض خلف طيور الماء البيضاء على شاطىء أبين ... وألملم اصدافها ... وكنت انتشي بالغناء العدني في مسارحها ... وكنت اذهب الى متحفها واسير في شوارعها والقلم في يدي .. اخط ملاحظات صحفية وفي داخلي شعور مبهم بأنني لن اكتب شيئاً ... ولن اخرج من هنا ... وكنت اجلس امام فضل ، أحد ثوارها وقادتها ، أسجل آراءه وانا احاول أن أمتصه بنظراتي مثل اسفنجة ... كنت وانا احمل القلم والورق اشعر انهما ادوات تنكري ، وانني كصحفية اؤدي دوري في مسرحية هي المبرر لوجودي هنا ... لكنني كنت في اعماقي احيا للمرة الاولى منذ اعوام بعيدة... كنت مثل سمكة اعيدت الى البحر بعد ان تخبطت طويلاً في شوارع نائية في قارات الغربة .

أحببت فضل . احببته حتى الوجع . حتى الحمى . احسست بالحمى أول مرة سمعته فيها يتحدث ... لا بل احسست الحمى أول مرة وطئت قدماي هذه الارض تلك الليلة المسحورة (مطار عدن . الفجر لما ينشق بعد . هبطت من الطائرة . هاجمتني رائحة عطرية دافئة . المطار صغير وفقير والطائرات قليلة ، ولكن نبتة وحشية الخصب نمت قرب المدخل رغم اسفلت المطار .. شجيرات غامقة الخضرة تفتحت فيها زهور وردية استوائية حارة اللون لها

رائحة عطرية خاصة .. رائحة نفاذة دافئة هاجمتني منذ اللحظة الاولى . كنت فيما مضى احس ان الروائح في اوروبا خافتة كالذكريات . هنا الرائحة نفاذة تجلدك .. ووسط هذه الحديقة الصغيرة تناثرت طاولات ومقاعد لتكون مقهى المطار . ومقاهي الترانزيت في مطارات اوروبا التي تهت فيها هي دوماً مكان كئيب تجلده الريح الممطرة والصقيع ، وفي احدى ردهاته المغلقة يحتسي المسافرون الضباب والبرد والغربة مع قهوة الصباح .. آه كم شربت قهوة الغربة في صباحات المطارات النائية الموحشة .. هنا انفاس الفجر الحارة توحي بانني في عالم آخر ... عالم لا يعرف الشتاء ... والروائح العطرية كثيفة الحضور ...

وتقدم مني شاب محروق البشرة يسألني بالفرنسية : مدموزيل أيدا ؟ انا شودرى الأحمد . انتدبتني وزارة الأعلام لاستقبالك .

لم اقل شيئاً . كنت حزينة حتى الموت لانه خاطبني بالفرنسية . انا هنا في وطني ، وانا هنا سويسرية . هذا ما يقوله جواز سفري على الاقل ! ... واسمي عايدة وينادونني أيدا ! تحجرت وتذكرت كل ما سبق وقرأته من اكاذيب شعرية وادبية عن العودة الى ارض الوطن ، وكيف يركع العائدون ويدفنون وجوههم في حفنة من ترابهم . اكاذيب أدبية . لم اركع . كنت مشاولة . ولم اتناول حفنة من التراب ، فقد كان الاسفلت تحت قدميّ صلباً ، واحسست ان الدم يندفع الى وجهي كأنني مرغته للتو فوق اسفلتها ... ولكنني كنت واقفة بلا حراك ، وأيقظني صوت الشودري يقول بالفرنسية ايضاً : الأخ فضل النديم .

كانت اول مرة أراه . كان نحيلاً أو ربما بدا لي هكذا بوجهه المتعب بينما اضواء الفجر تنبلج وترمي غلالتها الرمادية فوق ملامحه المليئة بالقلق والارهاق . كان له وجه رجل لم ينم منذ ايام ، وربما منذ اعوام ... ولولا ذلك الشعاع النفاذ الذي كان ينبعث من عينيه وكله عناد وشراسة ، لظننته مشرفاً على انهيار عصبي ...

وبدا لي من الحركة غير العادية في المطار انه كان يودع ضيفاً ما ... قال لي بالانكليزية وبلهجة شخص ليس لديه وقت يضيعه بالمجاملات :آه . مندوبة جريدة «نوفالو جنيف» ؟ تذكرت . استطيع ان اقلك بسيارتي الى عدن .

في السيارة وقد غادرنا اصغر وأفقر مطار شاهدته في حياتي ، ولكنه المطار الوحيد الذي تفوح منه رائحة عطرية برية حارة – اتجهنا نحو عدن ...

وبدأت اخلع اكوام الثياب التي كنت ارتديها ... كان الجو حاراً حاراً كما كنت اتذكره في احلامي التي طالما دارت في اليمن .

المدرسة الداخلية في ضواحي جنيف باردة باردة . ليلة عيد ميلادي الرابع عشر تذكرت أمي التي لم اعرفها وحقدت عليها لانها تجرأت على ان تموت وتتركني . وتذكرت الشيك الذي وصلني ، والذي يمثل بالنسبة الي ابي ، ونمت دون ان أبكي ، لكنني اخرجت من درجي المقفل مدفأة كهربائية اسرق بها الدفء واضعها في غرفتي الصغيرة ليلاً في ليالي الوحشة والبرد ، ثم اخفيها بحذر مع خيوط الصبح الاولى قبل ان تكتشف الراهبة ذنبي . واشعلت المدفأة الكهربائية ، وحلمت ليلتها بأن الدفء شديد شديد ، وبانني اسير مع أمي في أحد شوارع اليمن ، وانني صغيرة والعرق يتصبب مني واريد أن اقبل امي ولكنها طويلة طويلة ونائية وانا صغيرة واننا نمر امام باب معبد هندي وان رائحة نفاذة معينة تفوح منه ، وأن امي دخلت الى المعبد وخلفتني في الخارج ، ثم يشتد الحر وتطلع الشمس مثل وحش له اسنان من النار ، وان الشمس تقترب مني وتقترب وانني التهب وانني اصرخ واصرخ ...

واستيقظت وانا اصرخ ، وكانت النار قد شبت في الستائر وفي ملاءة فراشي وكادت تمسك بي . لقد قربت المدفأة تلك الليلة اكثر مما يجب ... ويومها دفعت «الشيك» الهدية ثمناً للضرر المادي الذي احدثته ، كما ان الراهبة اللئيمة هددتني بجهنم عقاباً للخطيئة ، ولم تقل شيئاً عن سرقتها لثمن

الوقود الذي ندفعه ، والذي تبيعه بدلاً من ان تدفئنا به في ليالي وحشتنا نحن نزلاء المدارس الداخلية الذين حتى بعد ان نغادرها نحس بان العالم كله ما يزال مدرسة داخلية بالنسبة الينا .. ونظل طيلة ليالي عمرنا نحس لسع بردها الموحش الكثيف ...

للمرة الاولى منذ زمن طويل ، احسست بمتعة الدفء ، وزايلني البرد تماماً بينما نحن في طريقنا من المطار الى عدن ، وخلعت اكثر من خمس «كنزات» . انفجر فضل ضاحكاً وقال بالعربية : ها انت تتصببين عرقاً والشمس لما تطلع بعد ، ونحن في منتصف الشتاء بين كانون الثاني وشباط ...

وادهشني انني افهم العربية جيداً رغم انني لم اسمعها باللكنة اليمنية منذ زمن طويل ... كنت التقي ببعض الفلسطينيين والسوريين في اوروبا . لكن اليمنيين من ابناء واحفاد السلاطين وحاشيتهم الذين هربوا اموالهم الى اوروبا كانوا يتجنبونني ، فرغم ان والدي كان واحداً من طبقتهم الكريمة ، إلا أن امي كانت فيما يبدو خادمة لديه ولم تكن من طبقة « الاسياد » وانما من « الخدام » ... ربما لذلك نفاني بعيداً كي لا يرى في وجهي ما يذكره بما يظنه عاراً على طبقته ... فليذهب إلى الجحيم هو وطبقته ورقمه السري في بنكه السويسري (لقد ذهب على اية حال وانقضى الأمر) ..

الضوء يملأ الدنيا ونحن ندخل عدن ، الجبال سوداء بركانية وحشية الصخور والجمال ورياح الفجر البحرية الدافئة التي تأتيني عبر نافذة السيارة تحمل اليّ رائحة خاصة وايحاءات عجيبة .. تذكرني بانني في الارض التي حلمت بها ، حلمت بانها ارض الاساطير وقدم آدم ومركب نوح والبخور والعاج وبلقيس .. لم اكن ادري يومها انني سأنسى كل شيء عن هذه الصورة الوهمية ، وانني في ارض الحقيقة العربية الاولى : الثورة ! ... وان عدن هي جمرة الجزيرة المعتمة .. أتأمل وجه فضل في النور .. منذ الدقائق الاولى اثار في نفسي شهية لمعرفته ... لرؤيته في ضوء أفضل .. لسماع المزيد من

كلامه ... للنفاذ الى ما تحت جلده .. لكنه كان شحيح الكلام ... لم يفتح فمه إلا حين اقتربت السيارة من شارع تبدو فيه بيوت التنك والفقر المروع قائمة خلف بيوت عصرية حديثة ... وبدت الابنية الحديثة في هذا الاطار الكثيف من الفقر الذي لم ار لمظاهره مثيلاً من قبل مثل ديكور لفيلم «وسترن» داخل قرية من البؤس .. قال فضل بحرارة : هذه الابنية كانت قبل الثورة للانكليز ولعملائهم ... وخلفها يعيش شعبي كما ترين ... هل تفهمين العربية ام تفضلين ان احدثك بالانكليزية أو الفرنسية ؟

وكنت افهم . كنت اجد صعوبة في الرد بالعربية ، لكنني كنت افهم كل حرف ، وكنت استمتع بسماع كلماته مثلما يحس سجين في المنفى حينما يسمع اغنية كانت أمه تنشدها له في طفولته لينام ، يغنيها سجين آخر عبر الجدران الحجرية للسجن ...

توقفت السيارة اخيراً امام فندق « كريسنت » . وتمنيت لوابقى معه ... أحسنني قريبة منه ، واعرفه منذ زمن طويل ، حتى ادهشني ان عليّ ، ان اقيم في الفندق وحدي هنا بدلاً من ان ارافقه الى داره ! ...

لم يبد عليه انه يشاركني شعوري . قال لي بشيء من البرود : انا ورفاقي على استعداد دوماً للاجابة على اي سؤال . اتمنى لك اقامة طيبة هنا ...

وذاب مع خيوط الشمس الاولى ... واعطاني الشودري رقماً وقال : متى استرحت من رحلتك اتصلي بي لنبدأ العمل ...

ومن يومها لم اعرف الراحة ! وحين ضمتني غرفتي وحدي ، لا ادري لماذا ادرت عقارب ساعتي المزدوجة وبدلت توقيت الساعة التي تشير الى توقيت جنيف ، فجعلتها تشير الى توقيت عدن . صارت الساعتان تشيران الى توقيت اليمن . وحين أخرجت صورة ريكاردو ، شاهدت فيها وجه فضل) .

يد فوق جبيني .

بصعوبة افتح عيني .

المرضة بثيابها البيض تقول : هل تسمحين بقياس حرارتك ؟... خلف رأسها مـــا تزال المروحة تركض .. والعرق يتصبب منهـــا ومني ومن

الجدران ومن الخص الخشبي للنافذة . أسألها كم الساعة ... فخلف الخص الخشبي للنافذة يمر بي كل ليلة طائر يشبه الغراب ... ينقر خشب النافذة ويهزها بجناحيه كأنما يحاول أن يوصل اليّ رسالة ما ... كأنه رسول من مكان ما يريد مني ان ارافقه الى حيث لا ادري ...'

قالت : انها الثانية عشرة ظهراً .... نسيت ان اقول لك إن السيدة فاطمة النديم زوجة الأخ فضل اتصلت بك بينما كنت نائمة ... إنها ترغب في زيارتك وستأتي بعد ان تنتهي من عملها ...

– عملها ؟ وهل تعمل ؟

– طبعاً . انها استاذة ومن زعيمات الحركة النسائية عندنا ..

زوجة فضل ! ...

ذلك الكيس الأسود الذي كان يتدحرج خلفه في الشارع في الليلة الثانية لوصولي الى عدن ... شاهدتهما ولم يشاهداني .

كنت في سيارة وزارة الاعلام مع الشودري . شاهدتهما من بعيد ، كان يسير ، وكانت تسير خلفه على بعد خطوة ، وكانا كغريبين ارغما على المشي على رصيف واحد بالصدفة .. كانت شيئاً ملفوفاً بملاءة سوداء يتحرك على الرصيف قال الشودري ان اسمه (الدرع) ... وجدت في هذا المشهد بعضاً لتفسير الوحشة التي تومض من آن الى آخر في عينيه ...

قررت : كم هو مروع ان يكون مناضل كهذا وحيداً ، عارياً من نصفه الثاني ...

قررت : افتقده . ويجب ان اراه .

قلت للشودري في اليوم التالي : اريد اجراء مقابلة مع الأخ فضل . هل يوافق ؟ ...

قال : اشك في ذلك . انه مرهق ، وقد اعلن اليوم عن اعتكافه في مكان ما خارج بيته ...

قلت له : ارجوك ان تحاول ...

في اليوم الذي تلا قال الشودري : وافق الأخ فضل على استقبالك . اختصري في اسئلتك لأنه متعب ...

كان فضل وحيداً في منزل يطل على شاطىء بحر العرب ...

فتح لنا الباب . بدا شاحباً وأصغر سناً ... ولاحظت أن يده الممسكة بالغليون ترتجف .. وامامه كتاب « المسيح يصلب من جديد » لكازانتزاكيس . شعرت بعاطفة جارفة نحو ذلك الرجل الرقيق الصلب كالفولاذ ، الذي يمسك باصابعه النحيلة عشرات من المتاعب والأزمات ... فالانكليز لم يخرجوا من عدن الا بعد ان خلفوا لها تركة هائلة من التخلف والفقر والمشكلات ... وخلفوا للثوار الغاماً من المصاعب تنفجر واحداً بعد الآخر .. احسست بعاطفة جارفة نحوه حينما لاحظت اسماء الكتب التي تملأ المكان . انه مثقف . اي انه معذب . حينما يكون السياسي او الثائر مثقفاً تتعمق قدرته على الحس بالصراع والألم ... قال لي بصوت خافت جداً : اهلاً بك ... هل تحبين ان نتحدث بالعربية ؟ ...

وتحدثنا طويلاً عن تجربته قبل الاستقلال وبعده ...

– ايام الاستعمار ، كنت اتنكر باللحية والعمامة وانا مطلوب حياً أو ميتاً ، واتحرك امام اعين الانكليز دون ان يعرفوني ... في البداية أحسست بالخوف وانا اتجول هكذا في صنعاء ... اتنقل في البلاد ... ثم ألفت ذلك ، ويوماً بعد يوم مات في قلبي ذلك النبض الحار الذي يشبه اللذة والمدعو الخوف .. لم يبق من تلك الأيام غير آثار قيود السجان على قدمي . بعد الاستقلال واجهنا مشكلات اكبر واخطر ...

قلت له بالعربية متوكئة في بعض الالفاظ على الانكليزية ، وكنت فرحة بها مثل طفل اكتشف نشوة المشي للمرة الاولى :

– انكم تواجهون مشكلة مرعبة هي هبوط الدخل القومي بعد الاستقلال هبوطاً هائلاً ... فالوعي السياسي ليس بديلاً عن الطعام ، وكل ما في الأمر انه يساعد على مزيد من الصبر ... ماذا لديكم من خطط ؟

والتهبت عيناه ، وانطفأ غليونه .

وبدأ يحدثني بايمان مدهش عن المسيح الذي يحمل السيف ، وعن تأميم البنوك ... والتنقيب عن المعادن ... والثورة التي خلقت في اقطار عربية اخرى ثواراً بالكلمات والسموكن، وثوار مقاهٍ ، لكنها في عدن المتقشفة المناضلة تخلق عمالاً حقيقيين يثورون في الحقل والمصنع لا في الحفلات والندوات التلفزيونية .. وكان يتحدث ... وكنت اكتب ... وخلفه على الجدار التمع خنجر حاد ... وكلما ازداد كلاماً وحماساً كنت احس بالخنجر يزداد حدة والتماعاً ويكبر ويكبر حتى يغطي الجدار كله ... والتهبت حماساً ... والتهبت الشمس في البحر خلفه ، واضاءت امواج الخليج وكان ضياؤها خناجر ، آلاف الخناجر التي تعوم على مياه الخليج ، وخيل اليّ ان آلاف السباحين يحملونها في افواههم يسبحون تحت الماء كاسماك القرش الشرسة ويحومون دفاعاً عن الشاطيء الذي استبيح مرة ، ورست فيه للمرة الاولى باخرة الاستعمار ، وخرجت منه للمرة الاخيرة .. أبداً ...

ومرت الدقائق ... لا ، بل الساعات ، فقد سمعت صوت رحيل سفينة في الافق البعيد ... وحزنت .. وقلت له فجأة :

ـ هل استطيع استعادة جنسيّي ، والبقاء هنا ، والعمل هنا ؟

قال بحرارة خنجر يعانق غمده دون ان يؤذيه : ـ طبعاً . ستبقين) .

الحمى تمزقني ... اشعر اني عاجزة عن تذكر تفاصيل الايام الباقية معه ... آه كم احببته ... كم بكيت في الليل حينما كان يعيدني الى فندقي ، ثم يتلاشى في الظلمة مثل نقطة مضيئة تبتعد ، ويخلفني وراءه مثل شيء ، مثل شجرة ، مثل المقاعد الحجرية في الحديقة امام الفندق .... انها المروحة التي تمزق افكاري . لا . لست مريضة . لست محمومة ، انه الحر ... اوقفوا هذه المروحة .. اذن ستأتي زوجته ... اذن زوجته استاذة وسيدة مثقفة ، وانا التي ظننتها طيلة هذه الايام زكيبة محشوة بالاطفال والضجر ...

تأتي الممرضة وتقول :

ـ حرارتك مرتفعة جداً. اتصلت بالطبيب وسوف يحضر وقد ينقلك الى المستشفى.

اذن لم تعد الابر المحشوة بالبنسلين تجدي امام ارادتي. اريد ان أرحل مع الغراب حينما يجيء الى حيث لا ادري ....

زوجة فضل ستأتي بعد ان تنتهي من عملها وانا التي ظننتها رحماً يجتر القات والثرثرة والتثاؤب ... طيلة لحظاتي الحلوة مع فضل لم افكر بها ولو لحظة واحدة ....

كنت اعتبرها من فصيلة أخرى لا دخل لي بها .. بل كنت احقد عليها ... كنت احس ان «فضل» بحاجة الى امرأة تفهم حقيقة مهامه وتقف الى جانبه لا مجرد آلة حاضنة لاطفاله ... لم اسأله عنها قط حتى في احلى لحظاتنا ... وحتى حينما حدثته عن حياتي وعن ريكاردو وسألني مطولاً عن علاقتي به، لم يخطر ببالي ان اسأله عنها ....

المروحة التي تدور في السقف تقترب مني باستمرار. تكاد تمزق رأسي. ظلالها المسعورة تفتت ذاكرتي. الممرضة تحمل وعاء ماء وتقترب مني. عبثاً اثبت نظراتي عليها او على اي شيء ... النمل عاد يخرج من وسادتي غزيراً، والخنجر، هديته، أضمه الى صدري ـ يجب الا أنسى، يجب ان أوصيهم بدفنه معي ـ. الممرضة تحمل وعاء. تضع على رأسي كمادات باردة ... اتركيني، اتركي صور سعادتنا المحمومة تفور في رأسي ... ثلوج العالم كله لن تبرد صورته في اعماقي، وأبخرة ذكرياتنا داخل دماغي ...

(اول مرة قال لي احبك، قالها كما لم يقلها لي اي انسان قط من قبل. هتف الي ظهراً، ربما من مكتبه، وقال لي فجأة: قررت انني احبك. وظللت صامتة. شعرت بأن صدري ينشق وانني لم اعد قادرة على التنفس وبدأت الدموع تسيل من عيني. ظل هو ايضاً صامتاً، واحسست صمتنا عناقاً فيه شراسة الالتصاق اكثر من اي عناق جسدي ...

تذكرت عشرات الرجال الذين قالوا لي «احبك» على ضفاف السين

وفي حانات لندن وليالي جنيف .. لم تدمع عيني قط ، بل كثيراً ما اعتبرت الأمر نكتة لطيفة ، أو ثرثرة غير هامة ... وكنت دوماً اضحك للكلمة ولا احس بانها تبدل شيئاً في مدار حياتي أو سلوكي او حتى غربتي .. كلمة « احبك » كان لها هذه المرة وقع آخر ... نكهة مختلفة ... ربما لانك قلتها بهذه البساطة ، وفي ضوء النهار ... وربما لانك كنت وحدك الذي أحببت ... اجل ! قلت لي احبك ، وصمتنا قليلاً ثم اغلقنا معاً سماعة الهاتف ...

وجلست افكر .. ربما للمرة الاولى أحب حقاً ... قبلك لم أحب قط رجلاً ضد مصلحتي .. كنت وحيدة في هذا العالم ، وكان عليّ دائماً ان آخذ بعين الاعتبار عملي ودراستي وعيشي حين افكر بحب أي رجل ... ويبدو انني كنت أعي ذلك وعياً غامضاً ، لأنه لم يحدث قط أن احببت اي إنسان يمكن ان يسبب لي اي اذى ، او دمار نفسيّ او معنوي ... هذا ما الحظه الآن وانا اذكر الرجال الذين مرّوا في حياتي ، لم يكن بينهم من كان عليّ ان اضحي حين أحبه .. لم يكن بينهم من كان عليّ ان اشارك زوجته فيه .. وحتى الرجال المتزوجون الذين خرجت معهم في بعض السهرات ، لم يكن يضايقني كونهم متزوجين او لهم عشيقات ، اذ لم اكن احبهم ، بل على العكس كان يريحني ارتباطهم بنساء اخريات لأن ذلك سوف يحميني من مضايقات إلحاحهم ... كانت هذه أول مرة احب فيها حباً اعرف انه سيدمرني ، دون ان املك له شيئاً سوى مزيد من الاندفاع والجنون ... وها انت تقول لي انك تحبني ، ولن يهدىء من وحشية اندفاع كوكبي الى كوكبك شيء .. وسيكون الاصطدام مروع الدوي والنار والهشيم).

المرضة تستبدل الضمادات الباردة بكيس من الثلج تضعه فوق رأسي وتمضي . احس والثلج فوق رأسي انني مثل بركان تكدست فوق ذروته الثلوج ... تضحكني الفكرة ... اسمع صوتي وانا اضحك ... ضحكي يستحيل انتحاباً ... لقد اضعت الخيط الفاصل بين الضحك والبكاء ، وفي فمي طعم غريب لا ادري ان كان طعم الموت او الحمى او الدم أو مزيجاً من

ذلك كله . وجه فضل يلاحقني كاللعنة ، وأحسه بلونه الصحراوي جزءاً من هذه الارض التي احببت ... بل انني حين اتحدّث به للمرة الاولى لم اكن ادري أكنت أتحد به ام بالارض تحتي ... فقد احببت الارض والناس هنا ... أحببت عري صراعهم مع الطبيعة والعصر من اجل البقاء ... هنا احسست اني جزء من قضية ... ان هنالك ما افعله .. ان هنالك من يحتاجني وبالتالي يمنحني سبباً للحياة .

اول دقائق وصولي . واجهت الوجه الاسطورة لليمن ... يمن الخرافات والدفء وألف ليلة والاساطير وجنات عدن . وفي الاسابيع القليلة التالية واجهت الوجه الحقيقي ، الوجه المأساة ، الوجه الشرس الذي يفرض كفاحاً معادل الشراسة ... واجهت جحيم عدن بعد ان قرأت الكثير عن اساطير جناتها ... والتصقت بالوجه الآخر ، احسست بالانتماء .. وجدت معركة تخصني وكنت اقرأ صحفها الصغيرة الفقيرة كل صباح وانا احاول ان افهم بالضبط كيف يحاول هذا الشعب النبيل الممزق الارض الى شمال وجنوب ، المثقل بتركة الاستعمار ، ان يكون وان يستمر دون ان يلعق حذاء الدول القائمة على مبادىء لاانسانية (اسمها الرسمي امبريالية) ....

بدأت جولتي في محافظاتها الخمس مع فضل الذي كان ذاهباً الى جبال يافــع ...

(كان ذلك في اليوم التالي للقائنا في بيته الملاصق للمنارة ...

غادرنا عدن ...

السيارة الروفر تركض الى شاطىء البحر ... قال فضل بغضبه الفتاك : الاستعمار لم يكلف نفسه عناء شق طريق واحدة بين عدن وبقية المحافظات ...

وطار سرب من طيور البحر البيض ... والسيارة تركض موازية للشاطىء تحت رحمة المد والجزر ثم تنحرف لتسير بين الكثبان في شبه مغامرة مستديمة ..

مررنا بسيارة منقلبة بين الرمال وكانت الشمس قد اكلت طلاءها ولم يبق منها الا بعض القماش الذي يغطي جسدها .. بدت لي مثل جسد انسان

مات منذ زمن طويل والتهمته صقور الصحراء ، وقال فضل : ما يزالون في الريف ينظرون الى السيارة على انها دابة ، وما ترينه من قماش وتزيينات هو بقايا « سرج » الدابة الذي يغطي بعضاً من هيكل السيارة ... أنت يا عايدة قادمة من بلاد مأساتها التخمة التكنولوجية والتخلف الانساني .. هنا نواجه العكس ، لدينا تخلف تكنولوجي ولكن انساننا ما يزال انساناً بالمعنى الاصيل للكلمة ، لا بمعنى بشر المجتمعات الاستهلاكية ...

وتوغلنا في الريف . وكفّ فضل عن القاء محاضراته . بدا شارداً وكئيباً ..

وصلنا الى « أبين » ...

بناء صغير عليه لوحة : « فرع المقر العام لتنظيم الجبهة القومية في أبين »..

ندخل ..

الرجال جبليون اشداء من ابناء جبل يافع ... غرفة بسيطة فقيرة المقاعد ، وغنية بصور الثوار العالميين .. وتجنب فضل والجميع الجلوس فوق « كنبة » مقعد واحد من « الستيل » الثمين المهترئة المخمل بدت لي وسط هذه الغرفة مثل رموش مستعارة على وجه راهبة خال من الاصباغ .. سألتهم عن الكرسي قالوا : انه كرسي احد السلاطين . تراه كان كرسي ابي ؟ هل قتلوه وهو جالس هنا ؟ شعرت بأن الامر لا يعنيني ، فأبي الذي أعرف كان حساباً في البنك ، وقد انتهى منذ نفدت نقوده ، ومات يوم سحبت آخر شيك ! ..

وتحدثوا طويلاً عن مشكلات الفلاح ... عن الصعوبات التي تواجه التأميم ... كان الأمر ببساطة ان هنالك شعباً يحاول ان يحصل على خبزه مع الكرامة والعدالة والمساواة ... وكانت صعوبة ذلك ترتسم عملياً في كل المشاهد التي تطالعني في الريف ... اطفال حفاة وشبه عراة يركضون وسط الطبيعة عزلاً كبقية كائناتها ...

مع جاعم وعثمان وعبد الباري واحمد تجولنا بين قرية المخزن وتخوم زنجبار وقرية الحصن وحصن غضنفر وجعار ... و... و... والاسماء تختلط في رأسي والصورة واحدة ... بؤس لا حدّ له ... تذكرت بحقد وانا ارقب

الاطفال العراة واجسادهم النحيلة كعصافير الشتاء الجائعة ، تذكرت الكلاب السمينة المدللة في جنيف المربوطة امام دكاكين باعة اللحوم بينما اصحابها يختارون لهم اشهى الوجبات والشرائح الطرية ... وشعرت بانني لن استطيع قط ان اعود الى جنيف لاعيش بسلام كأنني لم أر ما رأيت .. كانني حين ارحل من بلد الى آخر أرحل ايضاً من عصر الى آخر .. وهذا عصري !

وعدت ليلتها من جبال يافع البركانية الخامدة الى عدن ، وانا قانعة بان البركان الذي خمد في احشاء الارض قد استعر في نفوس ابناء هذه الارض وسرى نسغ النار والحديد في عروقهم ... لم يكن يفوق بؤسهم سوى رغبتهم في حماية طفلهم العظيم : الثورة .

عدنا ليلاً ... قال فضل : هل انت متعبة ؟

– بل حزينة ... حزينة حتى الوجع ...

وشدني من يدي ، ودخلنا الى المنارة الملاصقة للدار التي كان « يستشفي » فيها ... كانت رائحة زهر « الكادي » التي قطفها لي تفوح من صدري حيث دفنتها.. كنت اتأمل اصابعه وهي تقطف الازهار في الظلام وأكاد لا اصدق ... هذه الاصابع التي طالما توترت على زناد بنادق ورشاشات وشدت عليها لتطلق النار ، هذه الاصابع التي طالما التفّت حول مقبض خنجر في الظلام وتحفز صاحبها للقفز كفهد ، ها هو الآن امامي بالاصابع نفسها يقطف ازهار الليل والحب كأنه مخلوق اثيري من مسرحية « حلم ليلة صيف » لشكسبير ...

– الا تذهب ابداً الى بيتك حيث اولادك وزوجتك ؟ ...

قال لي كأنه لم يسمع سؤالي :

– كلي شيئاً من هذا « المقرمش » . لقد ابتعته خصيصاً لك كي تتعودي مذاق طعامنا ...

وتسلقنا المنارة ... درج طويل ، والجدران مدهونة بالاخضر مثل قاع البحر ... درج لولبي متماوج ، وانا اصعد، وبعد لحظات شعرت انني اسير

في دهاليز مدينة تحت قاع البحر ... انني في قارة منسية في الاعماق وحدي مع فضل ... ووصلنا الى القمة ، وكانت الاضواء تنعكس على مئات المرايا وعنها ، وبين المرايا وقف فضل ، وشاهدت آلافاً من انعكاس وجهه في المرايا المشهورة كالسيوف ، وآلافاً من عينيه تحدق بي ، تأكلني ، وشعرت بالدوار ، مددت يدي لأمسك به ولم ادر اي وجه من الوجوه في المرايا هو وجهه ... احتضنني وجرني الى الشرفة ... احاطني بساعده وسرت الرعشة في جسدي ، الرعشة التي لم اعرفها قط من قبل الا حين كنت اصاب بالحمى — حين كان يضمني رجال اوروبا كنت اشعر بالملل واحس بان اذرعهم قيود مملة ، وكنت اتسلى بمحاولة تخمين اسم عطرهم او نوع دخانهم ! — . وخرج معنا رجل المنارة العتيق الى الشرفة ، وكان النور ينطفىء ويضيء ، وقال بصوته الهرم الذي يشبه صوت الريح : ها نحن نطل على قارات وبحار ثلاثة .. هنا افريقيا ... هنا آسيا... حدقي جيداً في الظلام تَرَيْ الهند ... والبحر الاحمر ... والجزيرة العربية ... واحسست بأن الزمان يقف ، والريح تنصت بفضول ... واحسست ان المنارة تكبر وتكبر حتى تغطي اليمن كلها وشبه الجزيرة العربية .. وتضيء وتضيء ، وثمة رجال مقنعون في الظلمة يرجمون المنارة بالحصى ولكن المنارة تضيء ...

سرنا على الشاطىء في الظلمة شبه المقمرة ... فضل يستنشق الهواء ملء رئتيه ... جلسنا على الارض فجأة منهكين ... قال لي : « آه كم انا متعب ووحيد ! » .

واغمد رأسه في صدري كما سبق وأغمد حبه منذ ذلك اليوم ، يوم اهداني خنجره ...

قال : لولا غرقي في العمل الوطني ، لقتلتني وحشتي كرجل ... ولكن ، هنالك لحظات يستيقظ فيها القلب الوحيد ... ويحس بحاجة الى امرأة حقيقية. احبك ايتها الشقية ...

واتحدت به فوق التراب والاشواك والحصى ... لا بل اتحدت بجسد

الارض وبجسده معاً ، كانا شيئاً واحداً يحيطني كشرنقة ، وكنت واثقة من ان الارض تحتي كانت ترتعش وتخفق كجسد حي وحار وندي ... واننا في لحظة ، صرنا ثلاثتنا شيئاً واحداً .. هو وانا والارض ...)

المرضة تقول بغضب : لماذا رميت بكيس الثلج عن رأسك ؟ كفّي عن الحركة والكلام ... انك لا تتقنين فن المرض ...

وضحكت ... ضحكت كثيراً ...

تقول الممرضة : كفي عن البكاء ... أنت مصابة بحمى مدارية هونغكونغية لا يحتملها إلا أبناء هذه الارض ... لقد قتلت هذه الحمى كثيراً من المستعمرين الذين جاءوا الى هذه الارض ..... ولكن الطب تطور ، وستنجين ..

واردت ان اشكر لها (لباقتها) وتطميناتها ، لكنني احسست ان حلقي مثل حنجرة مذبوحة ، ترفض الاصوات أن تغادره ...

اتمسك بصورة ريكاردو ، وأرى فيها صورة فضل ... فضل .. آه كم وكيف احببته ! .. انه لن يدرك قط مدى تعلقي به ... هنالك لحظات يقسو عليّ فيها ويعاملني كسويسرية ...

(خرجت من متحف «كريتر» .. على بابه مدفع عتيق نائم ، وفوقه نام حارس عجوز بدا لي كأنه والمتحف الاثري من جيل واحد ...

في الداخل الآثار تضج حياة واصالة ... عيون التماثيل من الاحجار الكريمة ، اكثرها مسروق – المستعمر الذي يسرق عيون ابناء هذه الارض ، لم لا يسرق عيون تماثيلها ؟ – ... آثار مدهشة الجمال الفني والرقي الانساني ... لاحظت ان تماثيلها كلها ترتدي الاحذية ، وتذكرت الحفاة في شوارع عدن وحزنت ... وانا اغادر المتحف ، مرت بي عن قرب امرأة مرعبة ... كانت ترتدي (الدرع) الاسود وقد غطت وجهها بمنديل اسود شبه شفاف ، مرقط بالألوان الحمراء والزرقاء والخضراء والصفراء برسوم وبقع عجيبة ، وبدا وجهها خلفه مشوهاً كما لو كانت في كرنفال هيبي ...

عدت الى فندق كريسنت ووجدت فضل في انتظاري كي أرافقه الى حضرموت ...

قلت له : المرأة هنا شيء مرعب ...

قال : « الدرع » الذي تكرهينه ليس دائماً حزمة من الكسل والبلادة وانما حزمة من المتفجرات احياناً . عام ١٩٥٤ كانت نساؤنا يحملن المناشير والمتفجرات والاسلحة تحت هذا القناع ، وقد قدمن خدمات هائلة للثورة قبل ان يكتشف جنود الانكليز الخديعة ... ثم ان المرأة في الريف كما رأيت حاسرة الرأس تعمل جنباً الى جنب مع الرجل ...

قلت : يجب تحرير المرأة ... ويجب تحرير الرجل من العادات والتقاليد التي تكبل الانتاج ... وتشل العمل وتزيد البطالة بطالة ... ألا ترى معي عشرات الرجال المرميين على الارصفة في الحر كالذباب المتلاشين جوعاً وفقراً ؟ يجب منع القات ... يجب ...

قاطعني بحدة : من السهل جداً ان تقولي يجب ويجب ويجب ان تفعلوا كذا وكذا ... انك تتحدثين « من الخارج » مثل اي خبير اجنبي او مستشرق . انك لا تعرفين كم نعاني ... وطريقنا طويلة ومشكلاتنا لا تحل بالفذلكات اللفظية ...

قلت بعناد : يجب تحرير المرأة على الاقل ومنع الحجاب ومساواتها بالرجل .

– لدينا نساء كثيرات متحررات ... ربما كان من مآسينا ان بعضهن استحلن رجالاً دون ان يلحظن) ...

اشهق .. ماذا حدث ! اين انا . الممرضة شبح ابيض . كادات مثلجة على جبيني من جديد ... ارجوك ... اتركيني لرحمة الحمى ... لقد تعبت ، والألم في كل موضع من جسدي .. في كل موضع شبت النار واشعر بأنني ازحف عارية فوق حقل من الجمر ... والذكريات تشتعل داخل رأسي كالجمر ..

(تجولت وحدي في شارع الزعفران ... ثم سرت طويلاً في الاسواق التي تذكرني بروائح ازقة الف ليلة وليلة ... مررت بجامع الشيعة وتابعت سيري ... ثم فجأة في زقاق تفوح منه رائحة التوابل والكاري والدفء انتابني

احساس مرعب : انني كنت هنا قبلاً ! كنت هنا قبلاً ! سرت في هذا الزقاق ذات يوم ! وكان ذلك مذهلاً لانني اعرف ان هذه اول مرة آتي فيها الى عدن وامشي وحدي في شوارعها .. ومع ذلك امتلكني ذلك الاحساس الغامض الكثيف بانني اعرف الاحجار هنا ، ثم وجدت قدمي تقودانني الى باب معبد هندي ... وفجأة تذكرت انني رأيته قبلاً واين ... كان ذلك في حلمي منذ عشر سنوات حين كنت في الرابعة عشرة من عمري ! ... انه المعبد الذي دخلت اليه امي ولم تخرج وخلفتني وحيدة . اقتربت من الباب ، كان كبيراً وثقيلاً وسميكاً وموصداً ومن الداخل تفوح رائحة البخور ...

ظللت أفكر بغرابة ما حدث . ولما جاء فضل ورويت له ما كان قال لي بغيظ لم اتوقعه :

– دعيني من مشكلات ما وراء الطبيعة . لا وقت لدينا للاهتمام بها . نحن بحاجة الى الطعام والى السلاح ، ألا تفهمين ؟

في ملعب بجي كريتر ، كان الليل دافئاً ، وملمس الرمل تحت اقدامي على ارض الملعب طرياً وحنوناً ، وكلما هبت الريح البحرية ، المعطرة بالملوحة ورائحة ازهار غامضة تنبت سراً في الليل احسستني اركض في شواطىء مقمرة عتيقة عرفت امجاد صيادي اللؤلؤ من شواطىء هذه الارض ... وما زالت اصداء مجاذيفهم واغانيهم تنبثق في الالحان التي اسمعها على مسرح الملعب ... حيث اقيم حفل غنائي بسيط ... كانت هذه اول مرة اسمع فيها الغناء اليمني منذ طفولتي القديمة المنسية .. « احمد قاسم » يغني مع قرعات طبل انساني البداءة ، ودمعت عيناي وانا الحظ أن كورس الاغنية الوطنية اليمنية تتألف جوقتها من الاطفال ... كأن الكبار كلهم مدنسون ، والاطفال وحدهم جديرون بالتغني بالوطن والنطق بالفاظ لوثها الكبار . أغان مليئة بالحياة والحركة فيها تأثيرات افريقية ، والموسيقى خالية من النواح ... ووجدتني ارقص بقدمي وانا جالسة على المقعد .. قال فضل : لسنا في حفلة « جيرك » ولا في « مجمع هيبي » .. راقبي حركاتك ...

ولم اراقب حركاتي ... ولم ابال بالعيون التي بدأت تراقبني ... وحينما بدأت «رقصة اللوعة» ــ الدبكة اليافعية ــ قررت ان اصعد الى المسرح وادبك مع الراقصين ...

جرّني فضل بيده قائلاً : هيا بنا ...

سارت السيارة بنا في الخلجان المعتمة ومررنا «بإلفنت بوينت» ، حيث كان يحلو للانكليز اقامة (الفيلات) ، وشاهدت فضل يصرّ باسنانه ...

قلت له : هذا المكان يشبه كابري في النهار ... وهذا الخليج من اجمل شواطىء العالم ...

ولم يبد عليه انه يبالي بالجمال الطبيعي للمكان ... كان البؤس البشري يسري مثل النار في الوطن وهو والرفاق يكافحون على اكثر من جبهة ...

بدا فضل متعباً ... درنا بالسيارة طويلاً وهو صامت .. مررنا بمقهى يدعى «عروسة البحر الاحمر» . أصررت على الدخول . قلت له انه مصاب بالازدواجية وانه يخشى ان يرانا الناس منفردين في مكان عام .

دخل معي على مضض . لم يكن هنالك «اناس» كي يرونا . كان المكان حزيناً وفارغاً ، و «عروس البحر الأحمر» عانس تماماً ... وكان مكان (الباند) الفرقة الموسيقية فارغاً وآلاتهم قد سكنها العنكبوت والصمت .. احسست بوحشة وضيق .. سألت فضل : اين (الباند)؟ قال : في الحقل يحرثون الارض او يصطادون الاسماك . لا مجال لدينا لتفاهات المجتمعات الاستهلاكية ، ولكنك فيما يبدو تحنّين الى هذه الأجواء . تعالي ...

جرني من يدي وفي وجهه تعبير من يريد معاقبتي ..

قال بسخرية : سآخذك للعشاء في (روف روك هوتيل) . إن اصالتك تغادرك من وقت الى آخر ... رغم انتسابك لحزب يساري في اوربا ، ولكنك لا تملكين بعد النقاء الثوري الحقيقي المطلوب هنا ... يبدو ان يسار البلدان المرفهة يمين ! ...

مطعم «فندق روك» يقع في الطابق الاخير للفندق الكبير . يطل على

ميناء عدن المشلول الذي نامت فيه السفن القليلة الباقية منذ اغلاق قناة السويس ، ومن هناك بدت عــدن حفنة من الاضواء الملونة المرشوشة بين التــلال وخاف الخلجان .. المطعم مثــل اي مطعم غربيّ ، اوهذا ما خيّل إليّ للوهلة الاولى .

اوركسترا تعزف ، وراقصون وراقصات ، واسرة انكليزية تبدو سعيدة تلتهم (اللوبستر) الكركند وتستعمل كل « الآلات الجراحية » و عدة الأكل .. وعلى الجدران اقنعة نحاسية لوجوه بشعة ... والسقف مضيء بأضواء مختلفة الألوان كأنها النجوم الملونة ... ومع ذلك كان هنالك احساس غامض بالضيق يغمرني ... كنت اشعر ان هذا المكان شيء مضحك وسط قارة البؤس المحيطة به ... فيه مباهج الحياة ، لكنه محاصر بكل قسوتها وتحدياتها .. ولا احد يستطيع ان ينسى في الداخل ما يدور في الخارج ...

بعد قليل ، دخلت مجموعة من الشبيبة العدنية بالثياب المحلية ، والقمصان السبور ، وخيل اليّ أن الخناجر تتدلى من تنانيرهم العدنية ...

التقت نظراتهم بنظرات فضل ... التهب في العيون ما يشبه الشعور بالذنب ... خرجوا من المكان ... وبعد قليل غادرناه نحن ، والمصعد يهبط بنا ، شعرت بانني لا اهبط ستة طوابق فحسب ، وانما ارحل من ارض الوهم لأعود الى ارض الحقيقة الصلبة والواقع ... فعلى باب الفندق لاحقنا حتى السيارة شحاذ عاري القدمين . واوصلني فضل الى الفندق وغضب شرس يشع منه ، ولم يقل كلمة واحدة) ..

من جديد توقظني الممرضة بكماداتها الباردة ... ارجوك .. دعيني .. قلت لك ان لا شيء يجدي ... ما زلت ازحف عارية فوق الجمر ، واحس اني بدأت أنهي مسيرة العذاب ... واتلاشى ....

متى يأتي فضل ؟ سأقول له مرحباً ... مرحباً ... مرحباً العدنية ، الكلمة المسحورة التي تعني اجل ، واتفقنا ، وأهلاً ووداعاً ... « مرحباً » تلخص الحكاية كلها ...

(مرحبا فضل ...
كنا في الطريق الى لحج ...
مرحبا ابين .. يافع .. ز نجبار .. حضرموت .. مرحبا
مرحبا فضل ...
قلت : حول القضايا الدينية يجب ان ...

قاطعني بشراسة : لا اريد ان اسمع منك كلمة يجب ، بعد هذه الرحلة الى لحج ، تكونين قد عرفت وطنك ، ومن الغد ، تغادرين الفندق ، وتعملين معنا وتكسبين رزقك وتقطنين مع أمي وتستعيدين جنسيتك ... أو تعودين الى جنيف وريكاردو وكلبكما المدلل . لسنا بحاجة الى « محاضرين » ، نحن بحاجة الى عمال ... هل تفهمين ؟ .

وفهمت ... كانت الشمس المحرقة تجلد الطريق ، والغبار يتسلل الى حلقي وانفي ، والدموع بدأت تسيل من عيني ... ضحك بقسوة كأنه يرقب حيواناً قطبياً يمضي يومه الاول في خط الاستواء ...

واخيراً بدت لحج بلدة غارقة في الرمال ، فيها حزن صخري جاف ، واعمدة من الغبار المضيء تنتصب بين ازقتها والشمس ... وشعرت بدوار ... وبدأت الاشياء تهتز ، الدكاكين الصغيرة الفقيرة ، والاقمشة المعروضة ، والزنانير الجلدية الحاملة للرصاص ، وصور عبد الناصر المعلقة خلف اغصان القات الخضر ، والعنزات التي كدت اتعثر بها ... وانحرفنا عن الطريق العام الى الازقة الاكثر فقراً من الفقر ، وطاردنا بعض الاطفال وكانوا فرحين برؤية فضل وسألهم السائق كيف تعرفوا عليه قال أحدهم ساخراً منا « شفناه بالدرزان » ... (أي بالتلفزيون) ... كان مدهشاً أية سخرية وحيوية وعناد يتمتع بها اولئك الاطفال ! كانوا يقفزون حولي كالشياطين الصغار ، وكنت اتلاشى تحت اعمدة الشمس المدارية ، اتلاشى ... الأصوات تروح وتجيء كأنها قادمة من بئر بعيدة ... طفلة صرخت وهي تتأمل ثيابي بدهشة .

« ياسين علينا » ...

« ياسين علينا » ... وسمعت صوتها يعلو ويعلو ، وشاهدت عشرات العيون الصغيرة المستديرة تحدق في وجهي ساخرة وشرسة وهي تزعق « ياسين علينا » ... وتمسكت بجدار معصرة الزيت العتيقة ، ثم شعرت بأن البناء العتيق كله يدور معي ، يدور يدور ... ثم تحول العالم الى صفائح فضية لماعة حادة تنغرس شفراتها في عيني . واستحال كل ما حولي الى وهج ابيض شرس حار لا متناه ...

امسك فضل بيدي وجرني الى السيارة ... لا اذكر بالضبط كيف عدت ، كل ما اذكره هو انني شعرت بأنني كنت أسير على ارض صخرية ثم تحولت الى رمال سائلة وانني بدأت اغوص تدريجياً في الرمال وان الرمال بدأت تندفع الى فمي وحلقي ... وانني اختنق ...

اذكر انني فتحت عيني .. كانت السيارة تركض وسط غيمة من الغبار ، ثم انفتحت هوة تحتي ، وبدأت اسقط في بئر بلا قعر) ...

الممرضة تقول : جاء الطبيب ....

عبر ابخرة الحمى عبثاً اتبين وجهه . حتى صوته يخيل الي انه قادم من قاع بئر ... يتحدث الانكليزية واتميز من لكنته انه هندي او باكستاني .... يتحسسني ... يقول اشياء كثيرة للممرضة .. يضعون على وجهي كمادات لا ادري ان كانت حارة او باردة ... احس بحركاتهم السريعة حولي كأنهم يحاولون حصار كوم من الرمل بدأ يتسرب من بين ايديهم الى هوة ما ... يغرسون في جسدي ابراً ... ثم يهدأ كل شيء ويتركونني وحدي واسمع صوتاً يقول آه واميز فيه صوتي ... وافتح عيني فجأة .... كما يستيقظ النائم حينما يقترب منه من يريد اغماد خنجر في جسده ، بهذه الحاسة الغامضة استيقظت..

كانت تقف امامي سيدة جميلة جداً، كاشفة الرأس ، ترتدي الملابس العدنية وقد سقطت الملاءة السوداء عن كتفها ...

كانت تتأملني . ولم تكن تحمل خنجراً وانما ابتسامة ... ومع ذلك لم

يفارقني حسي بالخطر . نهضت في فراشي . الى جانب الفراش وسط مجموعة الادوية كان هنالك الخنجر الذي اهدانيه فضل ، خنجر الجدار في بيته قرب الخليج ... وايضاً لسبب اجهله مددت يدي لأخفيه عنها ، وكانت نظراتها تتابع يدي . فتظاهرت بالامساك بورقة وقراءتها ... كانت وصفة الطبيب الذي عادني في غيبوبتي فيما يبدو ... وقرأت في اعلى الوصفة عبارة « الله هو الشافي » ...

ولا ادري لماذا خيل اليّ انني اسمع صوت الغراب يحاول ان يقتحم النافذة الخشبية ...

قالت لي السيدة بانكليزية صافية :

ـ انا زوجة فضل ...

لم ارد .

قالت : اذن انت الصحفية السويسرية التي علق بها مؤخراً ؟

لم ارد .

قالت : كنت أتصورك شقراء زرقاء العينين ... فرجالنا يحبون احياناً امتلاك النساء الشقراوات رداً على امتلاك المستعمر لكثير من نسائنا ايام القهر ...

بدت الحيرة في وجهها امامي . اذن لا تعرف أنني يمنية مثلها ؟ اذن لم يحدثها عني ؟

تابعت بصوت هادىء وجامد ما هو بصوت امرأة ولا رجل ، انما صوت كائن هجين :

ـ لا فرق ، شقراء كنت او سمراء . جئت انصحك بالعودة الى بلادك . جسدك الذي يعتاش على الجونبون والفيتامينات والبنسلين لا يستطيع احتمال امراضنا وجراثيم بلادنا ... ثم انني اعتقد ان علاقتكما طالت اكثر مما يجب .. وقد تسيء الى سمعة زوجي ومركزه في التنظيم . انصحك بالسفر فوراً ... الانفلونزا لدينا مرض لا تحتمله اجسامكم ... جوعنا ، ومتاعبنا ، ومآسينا

ومناخنا ، وحتى اوبئتنا ، لا تحتملها اجسامكم الهشة ...

كان في صوتها شيء رجولي وبارد . فتحت عيني ، وكانت صورتها الجميلة تقترب مني وتبتعد عني ، كان لها شكل امرأة جميلة جداً ... ومع ذلك كان هنالك شيء ما يشوه هذه الصورة .. شيء لا استطيع تحديده وسط أبخرة الحمى والدوار والمروحة التي بدأت تمزق دماغي ... وبدأت اصرخ : اوقفوا المروحة .

قالت بصوت بارد : المروحة لا تدور . انها واقفة ...

وكنت اراها تدور بسرعة شيطانيـــة . واحسستني مربوطة الى إحدى اذرعها ، وهي تدور بي تدور تدور تدور .....

تتابع : كل شيء في حياتي وحياة فضل منظم . انا بالمناسبة زوجته الثانية . هنالك زوجته الاولى ومهمتها انجاب الاولاد . انا مهمتي « النضال الثوري » . انني اشارك زوجي كل اعماله ومهامه وحتى رحلاته حين يكون لدي وقت . وليس من عادتي ان اتجسس على اخباره ولكن هذه اول مرة لا يحدثني فيها عن مغامراته ، ولذا جئت لأراك ... هذا كل ما في الأمر ... بالمناسبة ، هل تحبين ان احجز لك على أول طائرة ؟

(أن أرحل ...

ان لا اراه بعد اليوم ؟ ..

وهذه الارض التي احببتها بكل فقرها ووجعها وانينها وشراستها ، لا اراها بعد اليوم ؟

ان اعود الى جنيف ؟ ...

ان اتحرك في شوارعها التي تفوح منها رائحة النظافة المعقمة كما في المستشفيات ؟ ...

ان اعود الى ريكاردو ؟ ..

ان أبدل عقارب ساعتي من جديد ، فاترك ساعة لتوقيت فضل ومواعيد نومه ويقظته وعمله ، وساعة لتوقيت جنيف ؟

ان أجد نفسي غداً في جنيف ، حيث الثلوج تغطي كل شيء؟ ... ان اسير في الشوارع الى النهر ، ثم الجزيرة الصغيرة ، وسط النهر حيث البط الابيض الكسول يتثاءب وينظف ريشه ، والحارس العجوز يروي لي من جديد مغامراته زمن الحرب التي اعرف انه لم يخضها لكنه يحلم بها هرباً من رتابة رفاهيته ...

أن يضمني ريكاردو بعد ان اثمل في احدى الحانات؟

سأفكر بفضل ... بعينيه في ذاكرتي وشماً من جمر ... ساركض في شوارع جنيف مجنونة ... ساركض الى ساعة الزهور ، تلك الساعة الكبيرة التي رقعتها ارض من الحشائش، وارقامها زهور، وعقاربها تزحف فوق هذا المرج ... ساركض اليها ... وسأحاول ان ابدل توقيتها الى توقيت فضل .. توقيت عدن .. توقيت مئات آلاف الكادحين .. توقيت الجياع ماضغي القات رغم الخنجر في يدهم ... توقيت الذين سرقت اوروبا منهم زمنهم وها هم يركضون كي يلحقوا بزمنها ...

اجل ...

ساركض الى ساعة الزهور ... سأقطف كل الزهور وابصق عليها ... لا يحق لأية ارض ان تزرع الزهور اذا كان القمح في أي مكان من هذا العالم غير متوفر ... وسأوقف عقارب الساعة ... ستمزق يدي مسنناتها الحادة ... وسيركض رجال الشرطة وستستنكر الصحف هذا الاعتداء الهمجي ... وعشاق العصافير الذين خرجوا يتظاهرون في شوارع جنيف يوم قررت لندن ابادة الحمام فيها ، سيتظاهرون ضدي ... ولن يخطر ببالهم قط ان يتظاهروا من أجل شعوب سرقت أموالها لتودع في مصارفهم ، ومن أجل شعوب تباد بالقنابل) ... فييتنام ... جنيف حيادية ... لا ... الحياد غير ممكن في هذا العالم الوحش ... من ليس معي فهو ضدي .. لماذا لم يحدثني فضل عن زوجته ؟ لماذا لم يقل انها اذكى مني ؟ مثقفة وجميلة ... ماذا يريد مني ؟ لماذا قتلني بخنجره الهدية هكذا ؟ لماذا ازدواجيته هذه ؟ اهذي ... انني اهذي

ولا استطيع ان اتوقف ..

المرضة تضع جبلاً من الجليد فوق رأسي . الألم يمزق كل عضو من اعضائي ... اوقفوا هذه المروحة ... ارجوكم .. كفى .. كل ذراع فيهـا مقصلة ... الغراب جاء ... يضرب النافذة بجناحيه ... يأكل خشب النافذة بمنقاره ... يفتح دربه إليّ ....

فضل جاء ...

فضل جاء ...

تقول الممرضة ذلك .

فضل. جفوني ثقيلة مثل ستائر مسرح يمتد على طول الافق... ولكنني أراه ...

– حبيبتي لم اكن اخدعك . اعرف ما يمكن ان تكون قد قالته فاطمة . عرفت انها جاءت لزيارتك . لم اكن اخدعك . احبك . وستبقين الى جانبي .. وسيعاد غرسك في ارضي ..

كيف ؟ وأنا نبتة . كما قالت زوجته ، لن تقوى على المناخ والتربة ؟

– حبيبتي . لم اقل لك انني متزوج لانني لم الحظ ذلك !... المرأة الاولى في حياتي تزوجتها وانا في السادسة عشرة من عمري . المرأة الثانية اردت منها ان تكون شريكتي الفكرية لكنها ليست امرأة ... هل تفهمين ما اعني ؟ انها رفيقتي بل رفيقي في التنظيم ، لكنها ليست امرأة ...

انا ثائر لكنني رجل . عبثاً قلت لها انها مشوهة كما زوجتي الأولى مشوهة . الاولى رحم متحرك . والثانية بلا رحم .

إني بحاجة الى امرأة واحدة تمنحني الشيء ، الذي تمنحونه لي انتن الثلاث ... اني احب ثلاث نساء في وقت واحد كي اصنع منكن امرأة واحدة ...

هل تفهمين ؟ لم اكن اخدعك ... ولم اخدع أحداً .. المأساة اننا قبل الثورة لم نكن نكتفي بامرأة واحدة . كنا بحاجة الى ثلاث نساء .. وها نحن بعد الثورة بحاجة الى ثلاث نساء ... فالمرأة لم تتعلم بعد كيف تستعمل رأسها

دون ان تتعطل انوثتها ..

هل تستطيعين يا حبيبتي ان تكوني ثلاث نساء ؟..

امرأة واحدة تكفيني ، على الا تكون معطلة الانوثة ولا معطلة الرأس ..

هل تفهمين ؟ هل تفهمين ، هل تستطيعين ؟

وشعرت بأنني لا استطيع ان اكون اي شيء إلا ما انا عليه ... كنت اصير شفافة .. وشعرت بأن اجنحة لامرئية تنبت لي .. وانني استعد لرحيل بعيد بعيد ... وغاب صوت فضل ولم اعد اسمع سوى صوت الغراب يضرب نافذتي بشدة ويحفر الخشب بمنقاره مثل الحفارات الآلية التي تخترق الصخر .. ولم اكن خائفة ولا فرحة .. كنت فقط انتظر ... وفي انتظاري كنت اشعر انني كمن سيطلق سراحه ...

افتح عيوني ... الظلمة تقطن الخص الخشبي ، واصوات الشارع ميتة تماماً وحواسي كلها يقظة وصافية كما لم تكن ابداً .. بوضوح مذهل اعي كل شيء وارى كل شيء ... ها هو فضل مرمي في الكرسي وفي وجهه دموع جافة ... اكثر من طبيب في الغرفة ... اكثر من ممرضة ... انابيب مغروسة في ذراعي ... اذن يحاولون ضخ الحياة الى عروقي ... ها .. كل شيء مضحك... لا .. ليست الظلمة دامسة خلف النافذة... اذن انقضت ليلة كاملة ..

لا اشعر بأي ألم ... احس بأنني شفيت من امراضي كلها نهائياً .. اني .. اشف ... ارق ... اشعر انني كمن يطلق سراحه من كل قيد ... انه الفجر بدأ يضيء ، منقار الغراب ما يزال يحفر خشب النافذة بهدوء .. انني لا اسمعه ولا اراه لكنني اعرف انه هناك ...

ها الغراب قد استطاع ان يفتح فجوة في الخص الخشبي ... انه ليس غراباً كما كنت أظن .. انه شيء لم يخطر ببالي من قبل .. ها الفجر الرمادي يتدفق في الغرفة تدفق مياه البحر الى غواصة ثقب جدارها ....

ها انا اتسرب معه عبر النافذة...

الساعة ٤ ليل ٢٣ – ١ – ١٩٧٣

عذراء بيروت ١٩٧٣

امام المرآة الكبيرة في جناح « العرسان » بالفندق البيروتي الكبير أجلس .
الحلاق الشهير الذي كنت اقرأ عن فضائحه وسيدات المجتمع في الصحف
ينسق شعري . انه وسيم وسيكون لي معه قصة بعد ان انتهي من شهر العسل
الممل السمج . لم لا ، وانا سأصير سيدة مجتمع مثلهن . لا . بل اجمل وأفتى .
وزوجي المغترب الكبير اكثر ثراء من ازواجهن .

(لماذا ناديتني تلك الليلة يا علياء ؟ ... لماذا اردتني أن أشهد مصرعك
المروع ؟ اسرتك حولك مثل أكلة لحوم البشر ، والخنجر في يد والدك وزجاجة
الديمول في يد أخيك يدفع بها الى فمك لتشربي وأمك سارعت الى نافذة
الشرفة لتغلقها ، وانا اختبأت في ظلمة الشرفة التي كنت قد قفزت اليها من
شرفة غرفتي الملاصقة لغرفتك حين سمعت صوتك يناديني ، وعبر ثقوب
الخص الخشبي شاهدت ذلك البريق في عينيك حين شربت السم بملء ارادتك ،
ذلك البريق الذي أكد لي انك اخترت السم لأنك اردته ، كما ذهبت الى
وسيم للمرة الثانية لانك أردته ... وشربت الزجاجة كلها ... لماذا كانت
الريح باردة هكذا ، باردة تخترق اللحم والعظام والاعصاب وتذكرني كم
هو بارد تراب المقبرة حيث ستكونين في الغد ؟ .. بعدها بدقائق ، قرع الباب
والدك وامك وشقيقك ، وظننتهم قد ندموا على ما فعلوا ، وجاءوا يطلبون
النجدة ، جاءوا لاستعمال هاتفنا لطلب سيارة اسعاف لانقاذ حياتك ...

لكنهم دخلوا كعادتهم ... وقالت أمك لأمي كعادتها : جئنا نرى برنامج
« ..... » في التلفزيون . ولم يكن في وجه أي من افراد اسرتك تعبير ألم
واحد ، بل على العكس ، كان في وجوههم راحة من أدى واجبه ، وكان

في عيني ابيك البريق نفسه الذي شاهدته فيهما يوم عاد من اداء فريضة الحج ..
وكان اسم الحلقة « شرف البنت » او شيء من هذا القبيل، وعلى الشاشة ظهر المذيع « وسيم » . يتحدث بهدوء ويبتسم بدقة . دون ان يدري أنه في هذه اللحظة بالذات تحتضر امرأة لانها احبته ... ولانها رفضت ان تبوح باسمه ..

لماذا ناديتني تلك الليلة المروعة يا علياء ؟ ... صرخة واحدة حادة مزقت صوت الريح والعاصفة ... جلست اسرتك ترقب التلفزيون ، وجلست انا متحجرة عاجزة عن الحركة ... أتأمل وجه وسيم واكتم سرنا المشترك ... حبنا المشترك . رغم زعيق التلفزيون وتعليقات امي وامك ، كان يخيل الي انني اسمعك وانت في غرفتك تحتضرين ، وربما تقرعين الجدار المشترك بين غرفتي وغرفتك ، وتحاولين نقل رسالة الي كما يفعل السجناء عبر جدران زنزاناتهم ... وفهمت الرسالة ...

لا ادري كيف لم اصرخ ... كيف لم اركض لانقذك. كيف شاركت في جريمة التستر . كيف استطعت أن أظل صامتة جامدة ، وفي رأسي تصاعدت ابخرة سود كأنما انفتح في دماغي شق من شقوق الجحيم ، وها هي الغيمة السوداء تحتلني الى الأبد ... كنت اعرف أن جسدك يختلج وينتفض كجسد طير سقط في الجليد بعد أن اصيب بطلقة صياد لن يبالي حتى بلم جثته ... بدلاً من ان اهرع لانقاذك ، هرعت الى المطبخ واعددت القهوة لاسرتك كأية فتاة مهذبة فاضلة تعرف كيف تعني بزوار أمها ... واضفت للقهوة كثيراً من السكر ... كثيراً من السكر ...

لم اجرؤ على الانسلال الى غرفتي ... لم اجرؤ على ان اقفز من شرفتي الى شرفتك ثانية . لم اجرؤ على ان اراك باردة هامدة . لم اجرؤ على ان اسمع كلماتك الاخيرة . ففي تلك اللحظة شعرت انني ارى ملايين السكاكين التي يحملها رجال بلادي ، وملايين من زجاجات الديمول في المستودعات ، المعدة لقتل النساء والفئران ... ووعيت للمرة الاولى موقعي من كل ما حولي ومن حولي ... وسكنتني الغيمة السوداء) ...

ها هي أمي تدعك « بالكريم » ساقيّ وهي تزغرد وتعدني وليمة شهية للرجل الذي سيحتلني ويحل في جسدي على الرحب والسعة ... أتأمل يديها واعرف انه كان من الممكن لها ان تحمل بهما زجاجة « ديمول » لترغمني ذات ليلة على شربها ... وابي الذي يهرول في ردهات جناحي بالفندق يفتح الهدايا بسكينه الصغيرة ويطلق من آن الى آخر شهقات ارتياح واعجاب بالهدايا الثمينة . كان يمكن له أن يوجه السكين نفسها الى صدري .. لو لم ... لو لم افهم اللعبة بسرعة ... واتعلم ...

لو لم تحتلني الغيمة السوداء ...

لو لم اخف عنهم الحقيقة ...

الحقيقة ؟ ...

من يأبه بالحقيقة ؟ ...

ثم ، ما الحقيقة ؟ ...

هل احببنا « وسيم » حقاً ؟ ... هل كان حبنا حقيقة ؟ ... أم اننا ذهبنا الى شقته تحت تأثير نداءات تلك الكاتبة التي تجاوبنا مع صرختها بأن نمنح كل شيء للحب ، وان نتمرد ، وأن نعيش بصدق ؟

هل احببنا وسيم ، ام أحببنا التمرد ، أم احببنا العالم الذي كانت تنادي به الكاتبة لين ؟ ...

(اشترينا كتابها خلسة . اخفيناه عن اهلنا بين كتبنا . فقد شاهدتها اسرتانا في مقابلة تلفزيونية ، بشعرها الغجري ، وأثارهما انها أصرت على التدخين ، وانها تحدثت عن الحرية والثورة الجنسية وضرورة تحرر المرأة ، وقال ابي ان الرقابة يجب أن تمنع مثل هذا الافساد ، ودهش ابو علياء كيف يلقبونها بأديبة مع انها قليلة الادب بدليل أنها تدخن ، ولم يناما الا بعد ان كتبا رسالة احتجاج الى التلفزيون والى احدى الصحف ، وحذرانا من قراءة كتبها أو اي حرف تنشره في المجلات تحت طائلة العقاب الشديد ، أي اخراجنا من الجامعة ... وكنا قد نجحنا في الدخول الى الجامعة بعد معركة عنيفة دامت طوال

الصيف ، ولم يكن قد انقضى على العام الدراسي اكثر من شهر ، ولم تكن لدينا القدرة على مواجهة زوبعة جديدة ...

وتناوبنا قراءة كتاب لين .

كانت الشمس تشرق من صفحاته ... كل سطر فيه دعوة الى الحياة والى التجربة والى الحب ، والى التخلص من خدرنا الاجتماعي الذي نتوهم انه حياة ... كان دعوة الى الحياة الحقيقية والا فالموت افضل ...

وكان وسيم ...

شاهدناه على شرفة « بناية البستان » المواجهة للجامعة ... صرنا نتعمد اختيار مقاعدنا في الصف بحيث نكون قادرتين على رصد نوافذه ، وستائره البنفسجية التي تسدل عادة بعد ظهور احدى الجميلات على شرفته وشربهما كأساً من الويسكي (كنا نظنها ليمونادة يومئذ) ثم يتبع ذلك دائماً اسدال الستائر اكثر من ساعة ، وكنا ننسى ما يدور في الصف ، ونطلق خيالنا الى ما وراء تلك الستائر الليلكية نتخيل ما يدور ... نتخيل شفتي وسيم اللتين نعرفهما جيداً حين تتكوران في التلفزيون امامنا بينما هو يتحدث ، ونتخيله وهو يطبق بهما على شفتي الزائرة المجهولة ... وكانت الستائر تخفق ، وانفاسنا تتسارع وتضطرب ، والستائر ترتجف ، تهيج ، تجن ، ونحن عبثاً نطفىء النار التي انبثقت في مسامنا كلها ... واخيراً تهدأ الستائر حين يرفعها ، ونسمع صوت انزلاقها — او يخيل الينا ذلك — حاداً وقاطعاً مثل سكين تمزق خيمة ، ونتهي مسرحيتهما التي كنا نشارك فيها دون ان يدريا ... بل ربما كنا نرتجف ونتمزق اكثر من تلك التي يضمها خلف الستائر ... كنا المتفرجين الذين يعيشون المسرحية اكثر مما يعيشها ممثلوها ...

لذا لما كنا نلتقي به امام مدخل البناء صدفة ، كنا نبتسم له بخجل ودود خائف ، كاننا شركاء في عمل واحد شهواني .

وكان يطل من عينيه حين نحدق به تواضع مصطنع ولطف مسرحي مثل تلك النظرة التي تطل عادة من عيون المشاهير امام الناس العاديين حين يحدقون

بهم كأنما يقولون لهم : لقد عرفناكم ..

ولذا لما تجرأ ودعانا الى بيته لشرب الشاي ريثما يحل موعد الصف – وكان موعد الصف بعد ثلاث دقائق – كان صوته مستريحاً ، بل وفيه بعض الضجر والتعالي ... وصعدنا معه دون تردد ... كنا نموت شوقاً لرؤية ما وراء الستائر البنفسجية ... لرؤية المكان الذي نتعرى فيه ونُقَبَّلُ ونستسلمُ ونحيا ونمنح ونشهق ونلهث ونرتعش بينما نحن في الصف ...

دخلنا ...

ولم يخيب المكان احلامنا ...

كان صَدَفَةً بنفسجية ...

الجدران ... الأرائك ... الأضواء ... مزيج مسحور من الأسود والبنفسجي والموسيقى كالإضاءة لا تدري من اين تنبعث ... وغرفة النوم ، الستائر بنفسجية كالجدران ، والسقف اسود ، وملاءة السرير سوداء ، بنفسجية الوسائد الحريرية ...

كان حلماً عجيباً ...

حلماً اشتركنا فيه علياء وأنا بكل براءة ... ببراءة لا تعرف الرغبة في الامتلاك او الاحتكار ... ببراءة لا ترفض المشاركة ... وكما ان الطفل لا يبكي لان الشمس تشرق لسواه ، كذلك لم يضايق علياء أن تذهب الى الصف ، واذهب انا الى وسيم على ان نتبادل الادوار في اليوم التالي ! ...

سألني : هل أنت عذراء ؟

قلت بدهشة : طبعاً . لماذا ؟ ...

بدا عليه الضيق ، وتأفف ثم قال هذا لا يهم . سنحتاط للأمر. لا تخافي ، سأكون حذراً .

قالت لي علياء في الاسبوع التالي انه سألها السؤال نفسه ، وابدى الضيق نفسه .

صدر كتاب جديد من تأليف لين . اشتريناه . قرأناه . بعد اسبوع قالت لي علياء : مريم ، لم أعد عذراء .

قلت لها : وانا ايضاً . ولكن الأمر لا يهم .. كلما في الأمر انني لاحظت بعد ذلك ، وللمرة الاولى ، ان السرير البنفسجي الذي كان يحتويني كحلم ، كنجمة تطير بي ، صرت الحظ صريره الحاد تحتي ، وبدأت الحظ انه مجرد سرير حديدي .

بعد شهر قالت لي علياء : وسيم لا يريد أن يراني . يدعي انه يريد مني ان التفت لدروسي فقد اقترب موعد الامتحان .

قلت لها : وأنا ايضاً .. لاحظت فتوره .

انقضى اسبوع . وعادت الفتيات يظهرن على شرفته والستائر تسدل ... وترتعش ... حتى جاءته هي ، الممثلة المشهورة .. كنا في الصف حين شاهدناها للمرة الاولى ... خيل الينا أننا نعرفها ، فقد كنا نراها تمثل في احد برامج التلفزيون ... تلك الليلة عرفنا للمرة الاولى الغيرة . كل الناس كانوا يبدون لنا غير حقيقيين وبالتالي لا يمكن ان يثيروا حبنا او غيرتنا إلا أشخاص التلفزيون والروايات والقصص ... وحدهم كنا نحس بهم حقيقيين وبالتالي نغار ... ونحب .. كل النساء اللواتي شاهدناهن على شرفته لم يثرن غيرتنا ... كنا نحس انهن مجرد وهم ....

أما هذه الفتاة التي شاهدناها تمثل فقد كانت من طينة بطلات الروايات مثل بطلات قصص لين ... كانت حقيقية بالنسبة الينا ..

واكلتنا الغيرة ...

وتعذبنا ...

لا ادري كيف خطرت لي الفكرة . كنا ببساطة نتعذب ، وكان لا بد لأحد من ان يكون مسؤولا عن عذابنا – اي « أحد » ما عدانا – وقلت لعلياء : سنذهب الى لين . هي مسؤولة عما حدث ...

وقالت علياء وقد غرقت في تفكير عميق : لا يا مريم . لا اظن ان لين

هي المسؤولة ... ولكن فلنذهب اليها على اية حال ... اريد ان اراها واتحدث اليها .

بيتها كان صغيراً . بسيطاً . يكاد يكون فقيراً لولا جمال مشهد البحر خلف النوافذ . لا اثاث فيه سوى اوراق وكتب واسطوانات متناثرة فوق (موكيت) زيتي ، وفراش صغير على الارض مغطى بفرو الارنب في ركن الستوديو يتمم لوحة الفوضى حولها ...

كانت جميلة ، ولا تبدو اكبر سناً منا بكثير ... دخلنا ، ارتبكنا ، لم نقل شيئاً . صرنا نتهامس . قالت لين بفظاظة : آسفة، ولكن لدي عمل انهيه للمجلة التي اعمل بها . لا وقت لدي اضيعه ريثما تنتهيان من همساتكما . ماذا تريدان مني ؟

قلت لها فجأة : انت مسؤولة عما فقدنا ! ... هذه علياء وانا مريم ولم اعد عذراء ولا هي ، وقد فعلنا ذلك كله تحت تأثير حروفك وتعاليمك .. ماذا تملكين لنا الآن . ماذا نفعل ؟ ..

انفجرت لين تضحك. تضحك. ثم انصتت بهدوء بينما رويت لها الحكاية.

قالت : اذن القضية انكما فقدتما الرجل الذي تحبان لانكما منحتماه نفسيكما ؟ هذه مشكلة طبيعية لا بد وان تمر بها كل فتاة متحررة في مجتمعنا الانتقالي هذا ، فالرجل الشرقي ما يزال يخاف المرأة التي تمنح ... انه ما يزال يتوهم الحب والعطاء تهتكاً وهو لذلك لا يتزوج المرأة التي تحبه وتمنحه ذاتها ، وانما يفضل التي يشتريها ، فذلك يمنحه حساً بالامتلاك والأمان اكثر ... الحل ؟ لا حل لجيلنا ... لا مفر للمرأة من ان تعيش هذه التجربة المروعة مراراً وتكراراً ريثما ينضج الرجل ... وتستعيد عواطفه انسانيتها ..

قالت علياء بنفاد صبر : لم أعد عذراء . هل تفهمين معنى ذلك ؟ سيقتلني أهلي لو علموا ! ...

وبكيت بدوري :لقد فقدنا عذريتنا . هل تفهمين معنى ذلك بالنسبة لنا ..

وانفجرت لين تضحك وتضحك . ملأت كأساً من الويسكي وبدا في عينيها حزن حقيقي ناء ... قالت باستخفاف : إذن هذه هي كل المشكلة ! .. بسيطة ... كنت اظنكما تتألمان بشكل اعمق ... اذن كل المشكلة هي عذريتكما اي لو عدتما عذراوين لانتهت مسؤوليتي ، وانتهى عذابكما ...

صرخت علياء : طبعاً .

قالت لين : يا غبيتان ! . الا تعلمان أن التكنولوجيا حلت مشكلة البكارة ؟ وأن اية مومس من « حي المتنبي » تستطيع ان تعود عذراء بـ ٣٠٠ ليرة لبنانية ؟ ... الطب الحديث حل هذه المشكلة ... يستطيع الطبيب ان يخيط لَكِنّ ما تمزق ، اذا كان كل ما تمزق هو اغشية جسدية ! .. كنت اظنكما تبكيان تمزقاً أعمق ... تمزقاً في لحم الروح ... تمزقاً في اعصاب النفس ... بسيطة .

وتناولت الهاتف وهي تقول : لدي طبيب صديق ، سيجري لكما العملية على حسابي وبسرية تامة .

سألت مذهولة : — ألن يعرف أحد ؟ ...

بسخرية ردت : طبعاً لا . حتى لو جاء الرجل الذي سيشتريك فيما بعد بطبيب مع الكاهن ليتأكد من انك (صاغ سليم) .. لا .. ربما يقدر الطبيب الماهر اذا زود بالمعدات الكافية ان يلحظ آثار العملية ... اجل ! ولكن ريثما ينكشف الأمر للجميع ويشيع خبر هذه العمليات ، لن تواجها هذه الورطة ، لذا سارعا باتمام صفقة زواج .. أجل ! ... اعتقد أن الرجل العربي سيتزوج من الآن فصاعداً على يدي كاهن وطبيب خبير يفحص له « البضاعة » ! ... ولكن يوم يتقن الطب اجراء هذه العملية ، وهو يوم قريب جداً ، سيكون على الرجل العربي أن يعيد النظر في مقاييسه الاخلاقية كلها التي يقيم بها المرأة « الشريفة » وغير « الشريفة » ...

وبعد حديث هاتفي سريع ، كتبت لنا على ورقة عنوان الطبيب ورقمه الهاتفي . قالت لنا :

ـ قولا له « متى نستطيع اصلاح الجوارب المثقوبة » ، وسيفهم « كلمة السر » . هذه التكاليف سأدفعها انا ، مقابل شيء واحد : ان تخبراني بعد العملية ، هل انتهت المشكلة حقاً بالنسبة إليكما ؟ ...

ـ لماذا ؟

ـ لأنني اريد ن أعرف لمن اكتب ، وعلى من اتلو مزاميري ! .. اريد ان اعرف هل انتنّ حيوان داجن يستحق فعلاً ان يعامل بالطريقة التي يعامله المجتمع بها ؟ ..

ـ لماذا ؟

ـ لأنه اذا كان وجودكن كله ومشاعركن كلها هي مشاعر اليهودي البخيل الذي يملك بضاعة واحدة تتوقف حياته على حسن الاتجار بها ، واذا كنتن راضيات بذلك ، فسوف امزق هذه الصفحات التي كتبتها قبل ان ادفع بها الى المطبعة . من الواضح انكن فهمتن كل ما قلته في كتبي خطأ ... وظننتن انني احرضكن على المقامرة « برأسمالكن » ... انني احرضكم على ان تلحظوا انسانيتكم (عذراً لكنني اكره نون النسوة) ..

وخرجنا من عندها . وبرت بوعدها . وبر الطبيب بوعده . ولكن شيئاً لم يعد كما كان ...

علياء بدت مريضة بعد العملية . ظننت ان ذلك بتأثير « البنج » ، والخجل والممرضة التي كانت تنظر الينا باحتقار ، والطبيب الذي اختبأت خلف صمته قهقهة ساخرة ... ولكن الأمر تزايد يوماً بعد يوم ...

كانت تبدو كمن اضحى ذليلاً .. قالت لي ذات مرة فجأة : « لم اعد احتمل هذا العار . وقد بدأ العار يوم رضيت إجراء العملية ، لا قبل ذلك كما توهمنا ! » ثم تغيبت عن الصف ذات يوم ، وشاهدت من النافذة الستائر البنفسجية تخفق في شقة وسيم بعد ان تسدل ...

ولمع في خاطري شيء رهيب ...

وليلاً جاءت مغسولة بالمطر والدمع ... قالت : لقد انتهى الكابوس

وتخلصت من آثار العملية . عدت الى وسيم ! ...

وشعرت انني احسدها ، وانني لا اجرؤ على ان افعل الشيء ذاته ... كنت مريضة الروح مثلها ، مجلودة بالاحتقار الداخلي المقهور ... ولم اكن اعرف كم يمكنني ان اقاوم خوفي من السكاكين والخناجر ...

كنت كل صباح اسارع الى الصحف لأقرأ صفحة الجرائم ، واختار جرائم الشرف بالذات واستغرق في قراءة تفاصيل كيف ذبح أخ اخته من الوريد الى الوريد ، وأتأمل صور الذبيحة فأرى صورة وجهي في كل صورة لجسد مذبوح ، او كيف طعنها ابن عمها بالسكاكين ثم رشف رشفة من دمها ثم ذهب الى الشرطة مزهواً ، أو كيف شاركت الأم في قطع رأس فتاة وجزّه عن جسدها وكيف حملوا رأسها في الكيس الى القرية ليعرضوه على كبارها شهادة لهم في حسن السلوك الاجتماعي ... وكنت اتخيل انني انا التي تقتل وتذبح ويجز رأسها ويمزق جسدها ، واحس بأن الثقوب النازفة تنفتح في جسمي كله ... وأمضي يومي نازفة ممزقة وخوفي على علياء يتزايد ...

وخيل اليّ ذات يوم انني لاحظت بطنها يتكور ، وقلت لها ضاحكة : انت بحاجة الى « ريجيم » ...

وليلتها سمعت صرختها من الشرفة : يا مريم ... لماذا ناديتني تلك الليلة يا علياء ؟ لماذا اردتني ان اشهد مصرعك المروع ؟ .. اسرتك حولك يندونك في الصحراء ثم تفور عاصفة من الرمل وتدخل في عيوني ، واراك عبر سحابة الرمل والدموع تجرعين كأس الديمول ، وأمك سارعت الى النافذة تغلقها كي لا يرى الناس ، كان من الضروري ان تموتي كي لا تعيش « الفضيحة » . لماذا كانت الريح باردة هكذا ، باردة تخترق اللحم والعظام والاعصاب ، باردة كنظرات أهل العريس الحذرة الى العروس ريثما يخرج اليهم العريس بقطعة من القماش ملطخة بالدم فتدق طبول اهل القرية ويبدأ الرقص البدائي حول الذبيحة المضمخة بالدم والغربة ؟ ...

لماذا ظللت صامدة جامدة ، وفي رأسي تصاعدت ابخرة سود كأنما انفتح

في دماغي شق من شقوق الجحيم ؟) ...

« البسي الفستان يا عروسة ... العريس يريد ان يراك » . تقول أمه .. أرتدي الثوب الابيض المزين بالدانتيل الذي كلف خطيبي المغترب الثري ما يفوق راتب ابي الموظف المستور طول حياته مع رواتبه التقاعدية بعد موته أيضاً ! ... فستان العرس الأبيض ... يدهشني كيف تقف الفتيات امام واجهات المحلات يتأملنه بشهية ولهفة وتلتمع في عيونهن بالونات العيد المضيئة . دون ان يدرين انهن يتأملن كَفَنهُنّ ...

لين ... يجب ان ارى لين . وان احرضها على كتابة مقال تطالب فيه البنات بالاضراب عن ارتداء ثوب العرس الابيض ما دام في الحقيقة ليس اكثر من صرة تلف بها البضاعة . هذا في احسن الاحوال ، وهو كفن ابيض في اكثر الأحوال ... أما بالنسبة إلي فهذا الثوب الابيض ليس كفني ، إنه ثوب الجلاد الذي يرتديه حين يُنفّذ حكم الاعدام بشخص ما ... وانما سأنفّذ احكاماً كثيرة على طريقتي ... اذا كانت علياء قد استساغت دور الضحية فأنا افضل دور الجلاد ... واذا كانت قد هربت قرفاً ، فها انا اغطس بكليّتي في المستنقع واقبل اللعبة ضمن شروطها القذرة ، شروطهم ، وانتصر ايضاً ... منذ احتلتني تلك الغيمة السوداء تاركة في فمي طعم الرماد صرت افهم لغة عالمهم ، واعرف كيف اخاطبهم بها .. أجل .. سأكون سيدة مجتمع من الطراز الاول ... ستتحدث الصحف عن ثوب زفافي واناقتي ، وستقصدني المحررات فأحاضر عن السعادة الزوجية وأملأ أعمدة الصحف عن فضائل الوفاء الزوجي .. وقد امارس رسم لطخ بالدهان واصير رسامة تجريدية مشهورة .

آه ... أهلاً عريسي ... (**البضاعة جاهزة**) ... أمي توشوش في اذني : اسمعي يا بنت . أطلبي منه الليلة ان يكتب لك « بناية » . الليلة قبل الغد . والغد قبل بعد غد . « اسحبي » منه كل ما تستطيعين قبل ان يمل . فالرجال يملون بسرعة . والاغنياء يملون قبل الفقراء . والمرأة جانحها مكسور ... والفرصة تأتي في العمر مرة ...

أزيحها عني . اخرجها من الغرفة . خطيبي واقف على العتبة يتأملني . منذ احتلتني الغيمة السوداء وانا افهم هذا كله ، بل واكثر منه بكثير . مسكينة امي ، كم هي ساذجة ، ومبتدئة : انا جامعية ، وبتفكيري الاكثر نضجاً استطيع ان اكون اكثر شراً ما دام لا أحد يسمح لي بأن اكون شيئاً آخر ...

ثم إنني جميلة ... وشابة ... تعال يا سعادة المغترب شهال بك ... اجل انظر الي هكذا ... أجل .. تأمل السذاجة في وجه خطيبتك مريم العذراء .. لا ، ارجوك الا تقبلني ، في خدي فقط ، أجل، هكذا . لاحظ كيف أتورد خجلاً كالعذارى . يلذ لك ذلك . اعرف . يثير شهيتك الى الاغتصاب . منذ انتحار علياء — لن اقول مقتلها لأن البنت المهذبة لا تسمي الاشياء باسمائها — عرفت ستائر كثيرة في شقق كثيرة ... ستائر حمراء زرقاء خضراء صفراء ... ورجالاً كثيرين كانوا رجلاً واحداً هو تاره اخضر أو احمر او ازرق او اصفر .. كانت عذريتي تثيرهم اكثر مما اثار عطائي وسيم ذات يوم ... كانت تذكرهم بشهوة امتلاك سلعة مختومة، فض رسالة مغلقة ... أجل ! ... لقد تعمدت ان اجعل بطاقات الدعوة الى عرسي مختومة بالشمع الاحمر . (صرعة) تحدثت عنها بيروت باعجاب وبدأت العائلات الثرية تنقلها عني ... نعم . بطاقة الدعوة مختومة بالشمع الاحمر ، والختم لغة سرية مبهمة عتيقة ... كنت ادعوهم لحضور عرسي ؛ انا عذراء التكنولوجيا ، وهم قبيلة البدائيين الذين ما يزالون يقفون امام الابواب يتسولون خرقة ملطخة بالدم يخرج بها العريس عند الفجر وتطمنهم الى ان الدنيا بخير ... آه كم سخرت ... كم ضحكت وانا اكتب عناوين بطاقات الدعوة بنفسي .. بطاقة بطاقة ... آه كم سأسخر ..

شهال بك ، عيب . لا تمد يدك الى صدري . اعرف انني قد ابرزته من الفستان ؛ ولكن ذلك جزء من طريقة عرض البضاعة على طريقة دكاكين شارع الحمراء ... ولمس البضاعة ممنوع في البلدان الراقية .. وانت طبعاً

تعرف ذلك ما دمت تصطاف في لندن وتشتي في مونت كارلو ... نعم . لمس البضاعة ممنوع ، والصفقة لم تتم بعد ولكل شيء أصول ... آه ... انك تلهث ، ستلهث كثيراً، فوفر انفاسك ، اخشى ان تموت الآن قبل ان تتم الصفقة ... ارجوك ، لا تمت الآن ، انتظر ريثما نوقع الأوراق كي اقبض ولو جزءاً من اجري عن اداء دوري في المسرحية ... اجل ! انني أتدلع عليك يا شهال بك .. اعرف انك تحب ذلك ... اتدلع واتظاهر بالخوف منك ، ما رأيك بنظرة الشوق المشبوب بالخوف التي الصقتها على عيني بين الرموش المستعارة والكحل ؟ ... عظيمة اليس كذلك ؟ .. الدليل انك اخرجت منديلك وبدأت تمسح عرقك ... لا ... هدوءاً يا ابن الخمسين ... اشحذ سكينك بصبر وأناة ... يبدو انك تفقد صبرك باسرع مما توقعت . كنت اعرف كم انا جميلة لكنني لم اكن ادري اهمية نظرة البراءة والسذاجة حينما تكسو وجهاً جميلاً وكم تجرد الرجل العربي من مقاومته ...

تسألني : ماذا اريد هدية للعرس ؟ ..

آه .. الخاتم الماسي كان مدهشاً ولكن لي رغبة اخجل من الافصاح عنها .. لا . لا تلح . انني اخجل . يبدو انك تصدق انني سأموت خجلاً ... حسناً! لألفظ رغبتي مع (انفاسي الاخيرة !) ... هنالك بناء تجاه الجامعة اسمه « بناء البستان » فيه شقق مفروشة للايجار ، اريد ان تشتريه لي ... البناء كله .

— ولو (تكرم عينك) . هديه بسيطة. بناية فقط؟ كل هذا الجمال وبناية فقط ...

تدخل امي التي كانت تسترق السمع طبعاً و « تزلغط » يسألني شهال بك ، ولكن لماذا هذه البناية بالذات ؟ ... اقول : لانني كنت دوماً جالسة في الصف ، « زهقانة » من الدروس ، فالبنت يا شهال بك خلقت للبيت لا للجامعة مع الرجال ...

يقول : برافو .. عظيم .. تابعي ..

اتابع : وكنت اقول لصديقتي المرحومة علياء .. يا علياء ... يا ليتني

بدل هذه الجارة الواقفة على الشرفة تدلل أولادها وتطبخ لزوجها .. لقد كانت المشاهد (العائلية) في تلك البناية هي اول ما فتح عيني على عظمة وضرورة السعادة الزوجية .. ولولا ذلك لما قبلت الزواج ولما تزوجنا ولكنت تابعت دراستي الجامعية ... شهال بك يهتف : البناية لك . يخاطب أمي وجارتنا ام علياء : تربية عظيمة . البنت «جوهرة» ... سأهبط لاستقبال المدعوين . اسرعي يا حبيبتي ...

انا جوهرة . اجل . انا جوهرة اللعنة السوداء . انا العين المقتلعة من وجه إله مليء بالقسوة تفوح منه رائحة الدم والسخرية .

اقول لأمي : اخرجي انت وجارتنا اريد ان ابقى وحدي قليلاً .

أسمع صوتي ، قاسياً ، حيادياً ، آمراً .. للمرة الاولى اسمع صوتي الجديد .

امي ايضاً ، تدهشها اللهجة ، ولكنها تغادر الغرفة ، فابنتها صارت ثرية وهامة .

اركض الى الهاتف . الفندق فخم لحسن الحظ . ذلك يوفر سماع صوت «السنترال» . ادير رقم هاتف وسيم . يرد صوته الكسول . وسيم . أهلاً . أنا مريم . هل تذكرني ؟ ...

يقول باحترام لم اسمعه قط في صوته : مريم . طبعاً طبعاً . اهلاً مدام شهال . الف مبروك . الف مبروك ... قبل ان يتابع معزوفته أقول له : انا مسافرة غداً صباحاً الى شهر العسل وسأعود بعد اسبوعين . أحب ان نلتقي بعد ذلك .. كما كنا من زمان ... فالمشاكل العذرية ومخاطر الحمل تكون قد انتهت ، وزوجي كثير الاشغال والترحال ..

يقول : طبعاً ... اتمنى ذلك ... اين نلتقي ؟

اقول : في شقتي .

ـ شقتك ؟ ..

ـ اعني في شقتك . البناية كلها صارت ملكاً لي . اشتراها لي زوجي

هدية للعرس . بالمناسبة ، سأحضر لك معي من اوروبا ربطات عنق ثمينة ، وسترتديها لي على التلفزيون ...

بذل ناعم الصوت ، يقول : امرك يا سيدتي ...

– بالمناسبة ، ارجو ان تبحث عن شقة اخرى . أريد ان استعمل هذه الشقة بالذات لأموري الشخصية .

– امرك يا سيدتي .

امرك يا سيدتي ... كم سأسمع هذه الكلمة بعد الليلة . كم ستنحني رؤوس لتقبل يدي . بيروت كلها ستأتي الى عرسي ... بيروت المال والوجاهات ستركع اعواماً طويلة عند اقدامي ريثما يذوي جمالي ، وحتى بعد ان يذوي جمالي ستظل راكعة ما دام مالي لم يذو ... انني كنت دوماً ارى في الصحف صوراً لنساء كأنهن المومياءات الخارجات من قبورهن ، يرتدين المجوهرات ويلففن حولهن الفراء ، ويظهرن في المجتمعات ويحوم حولهن شبان صغار مساكين .. اجل .. ستظل بيروت راكعة عند اقدامي ما دمت أراعي قواعد اللعبة القائمة ، وافهم اشارات المرور الحمر والخضر ، التي تعارفوا عليها ، واعرف كيف اشتري الضوء الاخضر حين أريد ...

ولكن لين ...

سأهتف لها ... لا ادري لماذا احس بحاجة لاخبارها بخاتمة القصة . ثم انها هي طلبت مني ذلك . سأحدثها عن انتصاري .. وعن هرب علياء ... اهتف اليها . اقول لها اشياء كثيرة .. امي تقرع الباب ... وانا اتحدث ... وامي تناديني من الخارج .. وانا اروي كل شيء للين . أمي تدفع الباب وتدخل غاضبة ، ولين ترد علي بعبارة واحدة : تافهتان . انت وعلياء تافهتان ... وانت تافهة حقيرة .

ها انا اهبط الدرج ملكة اسطورية الى جمع المدعوين ...

ها انا اضيء .. ها عدسات المصورين تلتمع ... كلمات لين تعذبني ...

غداً ، بعد شهر العسل ، اشتري دار النشر التي تنشر كتبها والمجلة التي تكتب فيها .. وأطردها

اجل ... صفقوا لي .. ألا ترون كم انا ساحرة ومشعة .. انا عذراء

بيروت ١٩٧٣

(آه ... يجب ألا انسى الاتصال بالحلاق الوسيم قبل سفري لاضرب له موعداً ولاعطيه عنوان شقتي البنفسجية)...

الساعة ٢ يوم ٢٩ ــ ١ ــ ٧٣

فهرس

الإهداء

أهدي هذا الكتاب الى الرجل الذي أحب

غادة



□ انطلاقات الخيال الخلاق لدى غادة السمان تجعل منها واحدة من الأصوات الأكثر تجديداً وأصالة في الأدب العربي.

البروفسور ايروس بالديسيرا

□ ملحمة من عبارات متفجرة، غير أنها على الرغم من ذلك سلسة لا إبهام فيها ولا غموض، ترجم التخلف وتفضح الزيف وتهدم القواعد غير المستندة على أي أساس متماسك مما يشتهيه كل مفكر حر، ويهواه كل أديب حي. وأرجو أن يصيب رجمك كل جزء من البلاد من المحيط إلى الخليج وأنا موقن بحسن النتيجة.

ذو النون أيوب

□ «الدانوب الرمادي» ـ أولى قصص «رحيل المرافىء القديمة» هي واحدة من أجمل القصص «الحزيرانية» وأكثرها عمقاً وتعبيراً عن المأساة والتغلب عليها وفتح نوافذ للأمل والخلاص».

عايدة مطرجي

□ «رحيل المرافىء القديمة» ليس إضافة إلى فن غادة السمان فحسب، ولا إضافة إلى القصة العربية القصيرة فقط... وإنما هو إضافة كيفية إلى الوعي العربي المعاصر.

غالي شكري

□ قصة «الساعتان والغراب» مثال ساطع على توجه الأدب العربي إلى مواضيع جديدة تولدها التحولات الاجتماعية. وقصة الحب والواجب هنا تختلف عن القصة العربية التقليدية. ونجحت الكاتبة في إيجاد شخصية جذابة للثوري العربي الشاب.

البروفسور فلاديمير شاغال

□ الكلمة ملكة، تولد من فكر غادة السمان متوَّجة حاكمة.

مي منسى

□ غادة السمان هي اليوم الكاتبة العربية بامتياز.

يوسف الخال

منشورات غادة السمان